مقدمة فى

الحضارة الإسلامية

أ.د/ جمال رجب سيدبى

﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾

البقرة: ٣٢

الفهرس

الموضوع الصفحة



الفصل الأول

"ماهية الحضارة"

- ماهى الحضارة
- روح الحضارات
- الحضارة والبيئة الجغرافية
- ساميون وآريون
- الرد على مزاعم نظرية الأجناس
- موقف رينان من الساميين والآريين من الناحية الفلسفية

ماهية الحضارة

- ما هى الحضارة ؟ :

نود أن نشير فى البداية إلى أن تعريف الحضارة يعنى الانتقال من الحالة البدائية الأولى إلى حالة تحضر أكثر رقياً وتقدماً ، والحضارة نتيجة تفاعل الإنسان مع البيئة . وهى تشمل جميع المظاهر الاجتماعية والسياسية والثقافية والعلمية والدينية للحياة الإنسانية . والحضارة مثل الأفراد ، تنشأ وتنمو وتزدهر . فهى ليست ظاهرات ساكنة وجامدة ، ولكنها تخضع لحركة التاريخ . وقد يكون التاريخ والزمن سبباً فى انحلال بعض الحضارات وأفولها ، ولكن تظل الآثار شاهدة عليها[1] .

ويذهب بعض الباحثين أنه ليس للحضارة مفهوم واحد متفق عليه ، فقد كانت عند علماء القرن السابع عشر تعد شكلا من أشكال الثقافة ، لأن العلماء كانوا متأثرين بالمكتشفات العلمية التى تكشف عنها عصرهم ، وأدت إلى تقدم فى مجال الحياة الاجتماعية والفردية وعندئذ بدت الحضارة عندهم مجموعة من القيم والنماذج تحققها الإنسانية من خلال تطورها ، ومجموعة أنماط اجتماعية وأخلاقية وصناعية يحققها المجتمع فى نشاطه توصلا إلى سعادة مواطنيه والتقدم العلمى – مسبوقاً ومصاحباً للازدهار الفنى الأدبى – أظهر معالم الحضارة وأقوى مسبباتها.

والانثروبولوچيون وعلماء الاجتماع الأوائل من أمثال " أميل دوركايم " و " مارسيل موريس " ومعظم العلماء الأمريكيين والفرنسيين يوحدون بين مدلول الحضارة ومدلول الثقافة ، وإن قيل إن الثقافة هى كل استنارة للذهن وتهذيب للذوق وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد أو المجتمع ، وتشمل المعارف والمعتقدات والفن والأخلاق ، وجميع القدرات التى يسهم الفرد فى مجتمعه .

---

(١) د. نانى اسماعيل ، فلسفة الحضارة ، ص١ .

ولكل جيل ثقافته التى استمدها من الماضى وأضاف إليها ما أضاف فى الحاضر وهى عنوان " المجتمعات البشرية " أما الحضارة فهى جملة مظاهر الرقى العلمى والفنى والأدبى مما ينتقل من جيل إلى جيل فى مجتمع أو مجتمعات متشابهة ... ويفرق عادة بينها وبين الثقافة على أساس أن الثقافة ذات طابع فردى ، وتنصب خاصة على الجوانب الروحية ، بينما تبدو الحضارة ذات طابع اجتماعى ومادى(١) .

وأياً تكن التعريفات التى تعرض لمفهوم الحضارة ، فإننا نستطيع القول أن الحضارة تعنى السير فى عالم المادة وعالم الروح ، وبعبارة أخرى أن الحضارة بالمفهوم الإسلامى تعنى الارتقاء فى عالم القيم والإبداع فى عالم المادة .

ويبين لنا العلامة عبد الرحمن بن خلدون كيف أن الحضارة إذا تغلب الجانب المادى فيها على الجانب الروحى ، كانت شقوة الإنسان .

يقول: " إن الحضارة غاية للبداوة وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقه له عمر محسوس ، كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً. وتبين فى المعقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية فى تزايد قواه ونموها ، وأنه إذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر النشوء والنمو برهة ، ثم تأخذ بعد ذلك فى الانحطاط ، فلتعلم أن الحضارة فى العمران أيضاً كذلك . لأنه غاية لا مزيد وراءها. وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلف بعوائدها. والحضارة كما علمت هى التفنن فى الترف واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التى توفق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل. وللتأنق فى كل واحد من هذه الصنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداوة وعدم التأنق فيها. وإذا بلغ التأنق فى هذه الأحوال المنزلية والغاية تبعة طاعة الشهوات، فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها

---

(١) د. توفيق الطويل ، الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية ، مكتبة التراث الإسلامى ، ص٧ .

فى دينها ودنياها: أما دينها فلا استحكام صبغة العوائد التى يعسر نزعهـا، وأمـا دنياها فلكثرة الحاجات والمؤونات التى تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عـن الوفاء بها. وبيانه أن المصر بالتفنن فى الحضارة تعظم نفقات أهلـه والحـضارة تتفاوت العمران، فمتى كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل " [١] .

ويشير أيضاً عبد الرحمن بن خلدون إلى هذه النظـرة : أن مـن مفاسـد الحضارة الانهماك فى الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف ، فيقع التفنن فـى شهوات البطن من المآكل والملاذ ويتبع ذلك التفنن فى شـهوات الفـرج بـأنواع المناكح من الزنا واللواط فينفض ذلك إلى فساد النوع : إمـا بواسـطة اخـتلاط الأنساب كما فى الزنا يتجهل كل واحد ابنه إذ هو لغير رشده لأنه المياه مختلطـة فى الأرحام فتفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلكون ، ويؤدى ذلك إلى انقطاع النوع ، أو يكون فساد النوع كما فى اللواط المؤدى إلى عـدم النـسل رأساً وهو أشد فى فساد النوع إذ هو يؤدى إلى أن لا يوجد النوع والزنا يؤدى إلى عدم ما يوجد منه [٢] .

ويخلص العلامة ابن خلدون إلى : أن الحضارة المترفـة تقـضى علـى الأخلاق الفاضلة ، بل نقول إن الأخلاق الحاصلة فى الحضارة والترف هى عـين الفساد ، لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منافعـه ودفـع مـضاره واستقامة خلقه للسعى فى ذلك. والحضرى لا يقدر على مباشـرته حاجاتـه إمـا عجزاً لما حصل له من الدعة، أو ترفعاً لما حصل له من المربـى فـى النعـيم والترف وكلا الأمرين زميم [٣] .

(٢) ابن خلدون، المقدمة، " جزء ثانى " ، دار نهضة مصر ، تحقيق د.على عبد الواحد وافى ، ص ٨٨٨ .

(١) المرجع السابق ، ص ٨٩٢.

(٢) المرجع السابق ، ص٨٩٢ .

- **روح الحضارات :**

لكل حضارة روح تسرى فيها وطابع يميزها ومظاهر تتجلى فيها وكلها مستمدة من تصور أهلها للوجود والحياة والقيم ومن تكوينهم كأمة لها خصائص الحسية والمعنوية ومن شعورهم بذاتيتهم ورسالتهم فى الحياة ومن ظروف حياتهم ومكانتهم فى التاريخ .

والأمم قد تتشابه وقد تتباين ، فى روحها ومواهبها فى عمل من أعمالها ، وحضارتها تتشكل بعوامل ترجع إلى طبيعة الأمة وظروفها وقد يكون ذلك توجيه من مصدر أعلى ، هو الذى يدبر الكون ويوجه الإنسان فيه .

ونحن عندما نتأمل الحضارات الأخرى نجد أنفسنا أمام تنوع لا حدود له ، ونكتفى بذكر بعض الأمثلة :

هناك حضارة أخروية فى الروح المدافعة لها ، لكنها علمية فنية فى مظهرها ووسائل التعبير عن ذاتها " حضارة مصر القديمة " .

أو حضارة تنظيم اجتماعي بحسب مبادئ العدالة والمحبة الإنسانية وإرساء العلاقات الاجتماعية المتعددة على أسس أخلاقية وتربية الإنسان عن طريق التنوير الفكرى والإرشاد إلى القدوة الحسنة ، وهذا من غير أن يكون هناك بحث عقلى حول حقائق الأشياء أو اتجاه إلى تصورات ميتافيزيقية ، لكن مع عدم الجهل بكائن أعلى كامل هو المشرف والرقيب على الناس وأعمالهم ومع تصور لما يسمى " روح الإنسانية " أعنى يقابل لفظ " المروءة " عند العرب القدماء وتصور لشمائل الإنسان الرفيع وهى تقابل شمائل " الفتى" أو الفتى السيد عند العرب " الفلسفة الصينية كما يمثلها كونفوشيوس مثلاً " .

أو حضارة تسرى فيها روح المتشكك فى هذا العالم فترى أنه " وهم " كما ترى فى الوجود الإنسانى نفسه شراً وألماً وترسم الطريق للخلاص منه ، وهذا مع تصورات يكتنفها الغموض من قبيل القول بالتناسخ بمعنى تنقل النفس الفردية فى

شتى الصور إلى أن تتخلص من وجودها ، أو القول بما يسمى " وحــدة شــاملة " وراء الأشياء ، على الفرد أن يحارب فرديته وإرادة الحياة فى نفسه لكــى يفنــى منها ، وهذه هى حالة الفناء ، أو – النرفانا – ونحو ذلك من تصورات فى الفلسفة الهندية ، ومن الواضح أنها بوجه عام تصورات لا تشجع علــى الفاعليــة علــى احتمال العبء الضخم الذى ينهض به من ينشئ حضارة .

أو حضارة شعب مفكر مرهف الحس والروح ، يريد من طريق الاستنباط الفكرى أن ينشئ تصوراً عقلياً للكون ولتنظيم الحياة ، لكن مع شئ مــن النزعــة الخيالية أو الفنية الشعرية وتصور الأشياء قياساً على الأمور الإنسانية ، مع تبرير فكرة " الحقيقة " و " الفضيلة الإنسانية " ومع طموح إلى شمول الإنــسانية بمثــل أعلى فكرى وإنساني – وكل ذلك بالاستناد إلى ما فى فطرة الإنسان مــن عقــل وضمير " الحضارة اليونانية " .

أو حضارة تريد منذ قرون أن تقوم على التمرد على السلطة فى كل شــئ وعلى النقد للمعرفة إلى حد الشك والانطلاق فى التفكير حتى الوصول إلى أكثــر التصورات تعارضاً ، وهى تريد التجديد والتغير المستمر وتتطور حتــى تتــداخل فى القوانين التى تحكم الأشياء مع الاستعانة بالعلم وتطبيقاته لتسخير قوى الطبيعة وتنظيم أمور الحياة على نحو آلى دقيق ، عملاً بالشعار الذى وضعه منــذ أوائــل العصور الحديثة الفيلسوف الانجليزي فرنسيس بيكون وهو قولــه "العلــم قــوة" ، وقوله "يمكن إخضاع الطبيعة بإطاعتها" ، لكن مع الاهتمــام بالإنــسان وحقوقــه وحاجاته ورفاهيته وحريته ، غير أن هذا الاهتمــام يتــضارب فــى مظــاهره ، ووسائله ، بين ما يشبه الحجر على الإنسان من كل وجه – وبين إطلاق حريتــه ليفعل ما يشاء بنفسه ، حتى يمكن أن يضر غيره ، أو يهلك نفــسه ، وهــذا كلــه بحسب اختلاف النظم والايدلوچيات والأهداف ، مما أدى إلى تكتلات تعتد بــالقوة المادية ، وتهدد بانفجار قد يدمر الحضارة ومن أنشأها " الحــضارة التكنولوچيــة

الأوربية الحديثة التى لا يسير فيها التقدم المعنوى والروحى والخلقى للإنسان موازياً للتقدم المادى ويتنبأ لها بعض مفكريها بالانهيار [١] .

وبالنسبة للحضارة الإسلامية ، جاء فى كتاب حضارة العــرب بالأ لمؤلفه "يوسف هلْ" يقول : تتسم الأديان كلها بأنها تطبع تاريخ الإنسانية بطابعها ، والمؤسسون والأنبياء والرسل لهم نصيبهم فى حضارة عصرهم وشعبهم . غير أنه لم يتهيأ لأية ديانة البتة أن تصير دفعة أولى ، وعلى نحــو ســريع لحدوث تغيرات حركت الدنيا كما صار الإسلام ، وكذلك لم يتهيأ لمبلغ دين إلــى المدى الكامل ، أن يصبح سيد عصره وشعبه كما أصبح محمــد عليــه الــصلاة والسلام ولذلك فإنه من المستحيل كلية أن ندرك تطور الشعب الذى صار بفــضل الإسلام حاملاً للحضارة وناشراً لها ، ومن غير أن نعرف التعــاليم التــى كانــت تقوده ، وأيضاً ، فإنه بالنظر إلى خصوصية التاريخ الأول للإسلام يستحيل فصل تعاليمه عمن جاء بها ، فالعلاقة بين الشخص والتعاليم ، وبين التعاليم والــسياسة وبين السياسة والتقدم الحضارى هى بناء الإسلام كالعلاقة بين الحامل والحمل[٢].

ولابد أن نشير إلى نقطة غاية الأهمية ، ألا وهى أن الإسلام نفسه يجمــع بين جوانبه أساس الحضارة الإسلامية والمؤمن بروحها الذى شرع فى البناء هــو الأمة العربية، والمنفذ هو الأمة الإسلامية الكبرى ومن انــدمج فيهــا مــن أهــل الديانات والمذاهب الأخرى ، وبالمناسبة هى خروج الأمة العربية ومعها الإســلام وخصال العروبة إلى مسرح التاريخ العالمى الكبير ولقاؤهــا مــع الحــضارات الأخرى [٣].

---

(١) د. محمد عبد الهادى أبو ريدة ، الحضارة الإسلامية أسسها الدينية ومميزاتها ومكانتها بين الحضارات العالمية ، مجلة المسلم المعاصر العدد ٢٤ ، ص ٩ .

(١) د.أبو ريدة ، المرجع السابق ، ص ١٥.

(٢) د. أبو ريدة ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

- الحضارة والبيئة الجغرافية :

لا شك أن البيئة والمناخ لهما تأثيرهما بشكل أو بآخر ، ولكن ليست بالدرجة التى بالغ فيها بعض المؤرخين .

كثيرون هم الذين يردون الحضارة إلى البيئة الجغرافية ومن روادهم هنتنجتون فى كتابه المنابع الرئيسية للحضارة The Main Springs of Civilization وفيه رد الحضارة والتقدم إلى المناخ المعتدل البارد وقال إن جميع المناطق الحارة والمدارية سكانها متخلفون متأخرون!! وقد جاراه فى هذا الرأى كثيرون ، بل سبق إليه من مفكرى العرب ابن خلدون + ١٤٠٦م .

والرأى عندنا أنه إذا كان من الحق أن يقال إن للبيئة والظروف الجغرافية أثرها فى دفع الناس إلى العمل ، أو إلى الإحباط أو التوقف عن النشاط البدنى والذهنى ، فإن من الحق كذلك أن يقال أن الظروف الطبيعية أو الأحوال الجغرافية ليست العامل الوحيد أو الأهم فى قيام الحضارة واستمرار مسيرتها ، إن فى العالم شعوباً تميل إلى التكاسل طلباً للراحة ... وتلتمس لذلك عذراً فى الجو الذى لا يرونه فى بلادهم ملائماً للعمل مغرياً بالنشاط ، فإذا كان جو بلادهم حاراً قالوا – حتى مع انتشار أجهزة التكييف فى بلادهم- : كيف يمكن العمل فى هذا القيظ القاتل؟!! .

يبدو أن مرد العمل المتواصل إلى مدى استعداد الإنسان لذلك ، ومبلغ تهيئته للحركة والنشاط والتطلع إلى الرقى ، فليست ظروف البيئة الجغرافية هى العامل الأول أو الأهم فى نشأة الحضارة أو نموها ، وإن كان من الضرورى لمن يكد ويعمل وينتج أن يجد فى وطنه جزاء ملائماً للمعرفة ومتكافئاً لنشاطه (١) .

أما القائلون برد الحضارة إلى الجنس الأبيض دون غيره من أجناس البشر فهم بدورهم كثيرون ، يعلقون كل اهتمامهم على لون البشرة عند بنى الإنسان ...

---

(١) .. توفيق الطويل ، الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية ، مكتبة التراث الإسلامى ، ص ١٦ .

أما أن مرجع اللون فيما يبدو إلى طبيعة الجو ، وقد زخرفوا لهذا الزعم ثوبا علمياً وأقنعوا بذلك مفكرين أشاعوا هذه النظرية المزعومة .

ذلك أن نظرية نبتت فى القرن التاسع عشر وإن قالها بمضمونها القد تفرق بين شعب " آرى " هو الأصل الذى تنتمى إليه الأمم الأوربية وبعض الأمم الأسيوية ممن انحدرت لغاتهم عن أصل واحد هو اللغة السكريتية أو غيرها ، وكان إمام الداعين إليها ارستقراطياً فرنسياً هو چوزيف آثر جوبينو وقد زعم أن كل الشعوب الآرية وحدها دون غيرها هى التى خلفت كل ما له قيمة فى الحضارة وقامت بالحفاظ عليه ، وقيل أن السلالة الآرية هى منبع جميع الحضارات العالمية من قديم الزمان إلى حديثه ، وقيل أن النورديين هم سلالة الآريين الذين توطنوا شمالى أوربا قديماً ومنهم الشعوب التيوتونية والانجلوسكسونية ، إلى غيرها من السلالات والأجناس البشرية ، وكان " أدولف هتلر " يرى فى كتابه " كفاحى " أن الجنس الآرى وحده أهل لإنشاء الحضارة ، وأن الجنس اليهودى أشد الأجناس هدماً للحضارة ، بل إن كل الأجناس غير الآرية أجناس منحطة " كشعوب البحر الأبيض والشعوب السامية بوجه عام " .

وكان لتفوق الجنس الآرى اتصال وثيق بفلسفة القوة والسيادة الألمانية التى ذاعت فى ألمانيا القرن الماضى ، وكان من أئمتها " فردريك نيتشه + ١٩٠٠ ". وهو الذى زعم أن البشر قسمان : سيد وعبد ، وصفوة ودهماء ، ومن خير البشرية أن تعمل على خلق جنس من الناس يمتاز بالقوة والتفوق والسيادة ، ويتمثل هذا فى السوبر مان أو الإنسان الأعلى ، وقال زعماء النازية إن الشعوب المنحطة حاجتها إلى الغذاء والملابس والثقافة أقل من حاجة الشعوب الأرقى ... !!.

- **ساميون وآريون :**

وتقسيم الناس إلى ساميين وآريين هو من صنع علماء تاريخ اللغات في القرن التاسع عشر .

والسامى نسبة إلى سام على ما جاء فى التوراة من أنه كان لنوح أبناء ثلاثة : سام وحام ويافث ، فسام أبو الإسرائيليين وإخوانهم ، وحام أبو الزنوج ، ويافث أبو بقية البشر.

أما الآرى فمنسوب إلى آريا ، وآريا اسم شعب كان مهده النجد الفارسى من بلاد الأفغان وما إليها ، ثم انحدر فيما حوالى ٢٠٠٠ عام قبل المسيح إلى الشمال الغربى من الهند ومعه دين جديد من أديان الشرك هو دين الفيديين ، له كتاب مقدس هو مجموع مزامير موجهة إلى الآلهة تسمى : فيدا ، وهو اليوم دين البراهمة ودين الهندوسيين لم يدخله إلا تغيير بسيط .

وقد كان لمزامير هذا الدين المقدسة وما ألهمته من فلسفة أثر كبير فى حياة آسية العقلية ووصل صدى ذلك إلى أوربا منذ القدم .

لذلك لم يكد يستقر الاستعمار الأوربى فى بعض أنحاء الهند حتى أقبل علماء أوربا على دراسة الفيدا ، وقد راعهم ما لاحظوا من التشابه بين اللغة السنسكرية التى هى لغة الفيدا وبين اللغات الأوربية .

وهكذا نشأ علم مقارنة اللغات فصنفت اللغات أصنافاً ، وردت كل مجموعة منها إلى أصل واحد ، ثم جعل العلماء هذه الأنساب اللغوية أنساباً للأمم التى تتكلم بها .

- الرد على مزاعم نظرية الأجناس :

ونود أن نسير إلى التفرقة الدقيقة بين السامى والآرى .

ولتفنيد هذه النظرية المزعومة نقول بداية أنها ظهرت فـــى عــصر ينـــوء بتعصب دينى بغيض ، وتحزب جنسى مقيت ، وإن كان المتتبع لأبحاث المعنيـــين بتلك النظرية يلاحظ أن فكرة إقحام السامية والآرية على نشأة الحضارات كـــادت تتلاشى فى القرن العشرين ، وذلك بسبب أن نظرية السامية والآرية قد تضاءلت ، وظهر للباحثين ضعف سندها العلمى . وليس أدل على الخطأ الذى تـــورط فيـــه أصحاب هذه النظرية من أن الشعوب الآرية لم تنشئ حــضارات قديمـــة كـــالتى أنشأها الساميون فى الشرق كالحضارات المصرية والصينية والهندية ومع ذلك لم يستطع أحد من العلماء أن يأتى بسند علمى واحد على أن السلالة الآريـــة كانـــت موجودة بالفعل ، إذ ليس ثمة علاقة حتمية بين اللغة والـــسلالة ، فالآريـــة لغـــة واستعمالها للدلالة على سلالة معينة كما يستعملها الألمان ليس له مـــسوغ علمـــى واحد .(١)

- موقف رينان من الساميين والآريين من الناحية الفلسفية :

نجد روح التعصب للجنس واضحة أوضح ما تكون عند المستشرق رينان، وكما يعرض لذلك الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه الشهير " تمهيد لتـــاريخ الفلسفة الإسلامية " فيقول : " ويصرح رينان فى كتاب " تاريخ اللغات السامية " ، بأنه أول من قرر أن الجنس السامى دون الجنس الآرى . وتأثر برينـــان بعــض معاصريه ومن جاء بعده لوثوقهم بمعرفته فى هذا الشأن إذ هو قد عــرف لغـــات سامية ، وزار الساميين فى بلادهم".

ومما ورد فى كتاب رينان " ابن رشد والرشدية " :

---

(١) د. توفيق الطويل ،المرجع السابق، ص١٨ .

" ما يكون لنا أن نلتمس عند الجنس السامى دروساً فلسفية ، ومن عجائب القدر أن هذا الجنس الذى استطاع أن يطبع ما ابتدع من الأديان بطابع القوة فى أسمى درجاتها لم يثمر أدنى بحث فلسفى خاص ، وما كانت الفلسفة قط عند الساميين إلا اقتباساً صرفاً جدياً وتقليداً للفلسفة اليونانية .

وبذلك أدخل رينان فى المباحث المتعلقة بتاريخ الفلسفة عند العرب دعوى الطبيعة السامية وجعلها أساساً للحكم على تلك الفلسفة .

وعنده كما ورد مفصلاً فى كتاب " تاريخ اللغات السامية " أن خواص النفس السامية تتجلى فى انسياق فطرتها إلى التوحيد من جهة الدين ، وإلى البساطة فى اللغة والصناعة والفن والمدنية .

أما النفس الآرية فميزها ميل فطرى إلى التعدد وانسجام التأليف وينقد المرحوم الإمام الأكبر الشيخ عبد الرازق قول رينان آنفاً بأنه لا يخلو من اضطراب ، لأن رينان يقول فى مؤلفه " تاريخ اللغات السامية " : " ومن الخطأ وسوء الدلالة بالألفاظ على المعانى أن نطلق على فلسفة اليونان المنقولة إلى العربية فقط لفظ " فلسفة عربية " مع أنه لم يظهر لهذه الفلسفة فى شبه جزيرة العرب مبادئ ولا مقومات فكل ما فى الأمر " أنها مكتوبة بلغة عربية " ، ثم هى لم تزدهر إلا فى النواحى النائية عن بلاد العرب مثل اسبانيا ومراكش وسمرقند ، وكان معظم أهلها من غير الساميين " .

وهو يقول فى كتابه " ابن رشد ومذهبه " مرة هذا القول : " لا يزال حكمى بأن مباحث العقائد الدينية لم يكن لها كبير شأن فى نشأة الفلسفة العربية حكماً جازماً. وما صنع العرب شيئاً إلا أنهم تلقوا جملة المعارف اليونانية فى صورتها التى كان العالم كله مسلماً بها فى القرنين السابع والثامن .

ثم يقول مرة أخرى : " اتخذ العرب من تفسير آراء أرسطو وسيلة لإنشاء فلسفة ملأى بالعناصر الخاصة ، المخالفة جد المخالفة لما كان يدرس عند اليونان، وكذلك فعل فلاسفة القرون الوسطى " .

ويقول غير ذلك : " إن الحركة الفلسفية الحقيقية ينبغي أن تُلتمس في مذاهب المتكلمين " .

ونستخلص من أقوال رينان المختلفة بعد تجريدها من زينة البلاغة ، وخيال الشعر، ووثبات الحماسة والهوى ، والتناقض ، أن هناك فلسفة إسلامية هى تعريب الفلسفة اليونانية وهناك فلسفة إسلامية هى علم الكلام ، ويصرح رينان فى كتبه بأن فى هذه الفلسفة موضوعاً للطرافة ".[1]

ولسنا فى حاجة إلى كثير من التعليق ، والدفاع ، من أن رينان يبنى مختلف نظرياته على ضوء الجنس السامى والآرى ، وهى مقولة خاطئة قلباً وقالباً .

أقول إن فلاسفة الإسلام لم يكونوا مجرد ناقلين للفلسفة اليونانية على حد زعم رينان ، بالعكس تماماً والفكرة عندما تُنقل من حضارة لأخرى تأخذ خصوصية الحضارة التى تنتقل إليها ، فالفيلسوف المسلم لم يكن مجرد مردد ، إنما وقف الفيلسوف المسلم على نتاج الحضارة اليونانية وآخر ما وصل إليه العقل اليونانى ولكنه أبدع وأضاف من قريحته الفكرية ومن تصوره للكون والحياة والإنسان .

أقول إن حركة الترجمة الضخمة التى كانت فى عهد الدولة العباسية وساهم فيها بنصيب وافر المسلم والمسيحي واليهودي كانت بمثابة الدفعة للوقوف على فكر الآخرين .

---

(١) مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية .

ورغم هذه الحركة الضخمة (حركة الترجمة) ، سواء فى زمن المأمون أو غيره. إلا أن المفكر فى إطار الحضارة الإسلامية كان يعبر عن تركيبة هذه الحضارة ومقوماتها ، بعبارة أخرى فلقد قدم فلاسفة اليونان العديد والعديد من الأفكار والثقافات مثل فكر الخلق و الإلوهية وحرية الإرادة وغيرها من الأفكار .

ففكرة الخلق من العدم لم يعرفها فلاسفة اليونان ، وفكرة حرية الإرادة وكذا موضوع الإلوهية وما يتبعه من موضوعات أخرى كفكرة العناية الإلهية وغيرها من الأفكار ، لم تكن فى ذهن المفكر اليونانى ، إنما طرحها المفكر المسلم فى إطار الحضارة الإسلامية ، إذن لم الداع إلى أن نبنى تصوراتنا للعلم على ضوء التعصب لجنس دون جنس كما يزعم رينان ومن سار على شاكلته ؟!.

الفصل الثاني

"مقومات الحضارة الإسلامية"

- التوحيد.
- الإنسان.

مقومات الحضارة الإسلامية

نود أن نشير إلى المقومات الأساسية للحضارة الإسلامية ، وهى تمثل :

١- التوحيد :

تعتبر فكرة الإلوهية من المبادئ الرئيسية فى هذه الحضارة ، ومن ثم يترتب على فهم هذه الحقيقة النتائج الأخرى .

فالفكرة الإلهية فى الإسلام " فكرة تامة " لا يتغلب فيها جانب على جانب ، ولا تسمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة ، ولا تجعل لله مثيلاً فى الحس ولا فى الضمير. بل له ﴿ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ الروم: ٢٧ وليس كمثله شئ .

ولله المثل الأعلى من صفات الكمال جمعاء وله الأسماء الحسنى فلا تغلب فيه صفات القوة والقدرة على صفات الرحمة والمحبة ولا تغلب فيه صفات الرحمة والمحبة على صفات القوة والقدرة . فهو قادر على كل شئ وهو عزيز ذو انتقام وهو كذلك رحمن رحيم وغفور كريم ... قد وسعت رحمته كل شئ ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ آل عمران: ٧٤ وهو الخلاق دون غيره ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ فاطر: ٣.

فليس الإله فى الإسلام مصدر النظام وكفى ، ولا مصدر الحركة الأولى ، ولكن ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ الزمر: ٦٢ ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ الفرقان: ٢ ﴿ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ يونس: ٤ ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ يس: ٧٩ .

ومن صفات الله فى الإسلام ما يُعتبر رداً على " فكرة الله " فى الفلسفة الأرسطية . فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها ، ويتنزه عن الإرادة ، لأن الإرادة طلب فى رأيه ، والله كمال لا يطلب شيئاً غير ذاته ، ويجل عن علم

الكليات والجزئيات ، لأنه يحسبها من علم العقول البشرية ولا يعنى بالخلق رحمة ولا قسوة .

ولكن الله فى الإسلام﴿ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ التوبة: ١٠٥ ﴿ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ سبأ: ٣، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ يس: ٧٩ ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ المؤمنون: ١٧ ﴿ هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾ ﴾ طه: ٩٨ ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ ﴾ الأعراف: ٥٤... ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾ آل عمران: ١١٩ .

فكانت فكرة الله فى الإسلام هى الفكرة المتممة لأفكار كثيرة موزعة فى هذه العقائد الدينية وفى المذاهب الفلسفية التى تدور عليها . ولهذا بلغت المثل الأعلى فى صفات الذات الإلهية ، وتضمنت تصحيحاً للضمائر ، وتصحيحاً للعقول فى تقرير ما ينبغي الكمال لله ، بقسطاس الإيمان وقسطاس النظر والقياس.

ومجمل ما يقال في عقيدة الذات الإلهية في الإسلام ، إن الذات الإلهية غاية ما يتصور العقل البشرى من الكمال فى أشرف الصفات . فالله هو " المثل الأعلى".

وهو الواحد الصمد الذى لا يحيط به الزمان والمكان وهو محيط بالزمان والمكان﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ الحديد: ٣ ﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ البقرة: ٢٥٥ ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾ ﴾ فصلت: ٥٤[١] .

إن الإسلام في حقيقته ، دين الإيمان والتوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة، فالله هو الخالق الذي لا خالق غيره ، ﴿ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴿٨٣﴾ ﴾ يس: ٨٣، أي بحكمة وقانون وهو دين الإيمان بالتنزيه الكامل لله عن كل مشابهة لما يعرفه الإنسان أو يتصوره ، والله يدبر هذا العالم بالحكمة والرحمة المحيطة بكل شئ .

---

(١) عباس محمود العقاد ، " الله " الأعمال الكاملة ، دار الكتاب اللبناني ، ص ١٦٢ .

ومفهوم الإلوهية فى الإسلام ، كما يتعقله المؤمن المفكر فى ضوء ما ذكره القرآن لله من صفات الكمال والجلال والإكرام والجمال ، وهو أعلى مفهوم فـــى العقل ، بل فوق كل ما يخطر له .

والمفهومات العالية والمسائل الكبرى ترفع مستوى المفكر ومستوى تفكيره، ولا شك أن التوحيد الإسلامى ، إلى جانب سموه بالفكر إلـــى التـــصور الموحـــد للأشياء ونظامها. قد ارتفع بالفكر إلى مـــستوى التجريـــد والعلـــو عـــن الحـــس والمحسوس وبذلك هيأ عقل المسلم للقدرة على تحصيل نظـــام مـــن التـــصورات المجردة التى هى من مميزات التصور العلمى الفلـــسفى ، لأن قـــوانين العلـــم – وكذلك الفلسفة – ليست إدراكاً مباشراً للأشياء ، بل تصوراً مجـــرداً يستخلـــصه الفكر بنشاطه الخاص وينظر للأشياء ويتصرف فيها من خلال ذلك .

وعلى أساس الإيمان بالله الواحد الحق الذى يمسك بقدرته نظام الـــسموات والأرض ، والإيمان بالدين الذى جاء من عنده محكماً بأدلته وبرسالة الإنسان على الأرض ، كان من الطبيعى أن تلتقى عقول المسلمين وقلوبهم على عبـــادة الله وأن تتضافر إرادتهم على عمران الدنيا وإنشاء الحضارة فيها . فى ضـــوء الإشـــهاد الإلهى ، فقد كان الإيمان هو أساس الحضارة ، وهذا لا يحتاج إلى دليـــل ، وروح الإسلام سارية فى حضارته [١] .

٢- الإنسان :

لا شك أن الإنسان يمثل الأساس فى بناء الحضارة ، والحضارة نفسها هى رحلة الإنسان على كوكب الأرض .

فالحضارة الإسلامية ، قامت على الإنسان الذى صاغته هذه الحـــضارة ، على قيمها وتصوراتها ومفاهيمها ، لم يعد الإنسان الذى يصارع القدر ، ولم يعـــد

---

(١) د. محمد عبد الهادى أبو ريدة ، مرجع سابق ، ص ١٩.

الإنسان المحكوم عليه بالشقوة والتعاسة مثل بعض الفلسفات والأيدلوچيات ، إنمـا صاغت هذه الحضارة الإنسان المتوازن المعتدل فى هذه الحياة .

والإسلام ينظر إلى الفرد المسلم على أساس الروح والجسد ، فعقيدة الروح أحد العقائد فى القرآن ... والعقائد الغيبية أساس عميق من أسس التـدين ، تقـوم عليه كل ديانة يطمئن إليها ضمير الإنسان ولكن الفضيلة الأولى فى عقائد القـرآن الغيبية أنها لا تعطل عقول المؤمنين بها ، ولا تبطـل التكليـف بخطـاب العقـل المسئول ، وهو يؤدى حق التمييز وحق الإيمان والإسلام : إسلام الأمر كله إلـى الخالق المعبود .

وعقيدة الروح إحدى العقائد " الغيبية " والتى نلمس فيها هـذه الفـضيلة ، كأنها من حقائق الحس وإن وجب على العقل الإنسانى أن يؤمن بعلمه القليل فيها . وأن يسلم تسليم الإيمان " بأنها من علم الله " .

فالروح والجسد فى القرآن ملاك الذات الإنسانية تتم بهما الحياة ، ولا تُنكر أحدهما فى سبيل الآخر ، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس للجسد حقاً ليـوفى حقوق الروح ، ولا يجوز أن يبخس للروح حقاً ليوفى حقوق الجسد ، ولا يُحمـد منه الإسراف فى مرضاة هذا ولا مرضاة ذاك . وعلى الله قصد السبيل .

والقرآن ينهى عن تحريم المباح ، كما ينهى عن إباحة المحرم [١] .

ولا شك أن الإنسان فى الحضارة الإسلامية ، له المكانة السامية فإن مكانته هى مكانة الخليفة لله ، سبحانه وتعالى ، فى عمارة هذه الأرض ... والخليفة هـو قادر ومريد وفاعل ، ولكن فى حدود بنود عقد عهـد الاسـتخلاف ، الـذى هـو الشريعة الإلهية ، فالإنسان سيد فى الكون ، وليس سيد الكون ، لأنه خليفة لـ سيد الكون ... وبعبارة الإمام محمد عبده " ١٢٦٥ : ١٣٢٣هـ - ١٨٤٩ : ١٩٠٥م) فإنه – الإنسان – عبد الله وحده ، وسيد لكل شئ بعده .

---

(١) عباس محمود العقاد ، الإنسان في القرآن ، المجلد التاسع ، الأعمال الكاملة ، دار الكتاب اللبناني ، ص ٣٨١ .

وهذه الرؤية الإسلامية لمكانة الإنسان فى الكون والتى تمثل خصوصية حضارية تتميز بها عن الحضارات الإنسانية الأخرى ... كما أنها ثمرة للوسطية الإسلامية ، التى تقف بمكان الخليفة بين " التأليه " و " التهميش " فإنها ثمرة من ثمرات التصور الإسلامي لنطاق عمل وتدبير الذات الإلهية ، فلما كان الله المدبر للخلق – وليس فقط الخالق للوجود– كان لتدبيره مدخل فى الرعاية والترشيد للإنسان ، وهذا المدخل هو عقد الاستخلاف الذى جعل الإنسان حاملاً للأمانة – فهو ليس المُهمل المُجبر المُهمش – كما أنه ليس المتفلت من إطار التدبير الإلهى ... إنه الخليفة لخالق ومدبر هذا الوجود .

وهذا التصوْر الإسلامي للإنسان كخليفة عن الله ، مع تصور الذات الإلهية كمدبر للوجود الذي خلقه ، هما وجهان لعملة واحدة .

فهذا الموقع – موقع الخليفة – الذى أراده الله للإنسان فى عمارة هذه الأرض ، هو الذى يعبر عن خصوصية الرؤية الإسلامية ، والتزامه فى بناء الحضارة الإسلامية ، هو الذى يجعل هذا الإنسان إنساناً ... وربانياً فى ذات الوقت ... وهو الذى يحقق المعنى الذى لم تدركه الملائكة من ذاتها عند خلق الله هذا الإنسان، قَالَ تَعَالَى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ البقرة: ٣٠ .

وكما أن تحقيق فلسفة الاستخلاف ، وضوابط الخلافة يجعل الإنسان الخليفة إنساناً وربانياً فى ذات الوقت . فإن ذلك التحقيق يجعل من صناعته للحضارة ، حضارة إنسانية وإسلامية أيضاً ، وبهذا تتميز حضارة الاستخلاف الإسلامية عن غيرها من الحضارات التى " تهمشه " أو " تؤلهه " [١] .

---

(١) د.محمد عمارة ، مقال حضارة ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد ٧٣-٧٤ ، ص ١٧ .

الفصل الثالث

"مظاهر الأخلاق في الحضارة الإسلامية"

- تكريم الإنسان وحقن دمه
- حرية العقيدة والفكر لغير المسلمين
- التسامح
- الإسلام يعلى من قيمة الجمال

مظاهر الأخلاق في الحضارة الإسلامية

احتفى الإسلام بالأخلاق أيما احتفاء ، ولا شك أن أحد الأسباب الرئيسية في قوة هذه الحضارة اهتمامها بالجانب الخلقي ، وبالفلسفة الخلقية للإنسان .

لهذا كما قلنا أن الإسلام يعتبر أن الإنسان أحد المقومات الرئيسية في بناء الحضارة. لهذا نجد أن الحضارة الإسلامية قد اهتمت بالقيم الإنسانية الرفيعة، مثل تكريم الإنسان ، وأنه خليفة الله في الأرض ، ونشر مبدأ التسامح والعدالة ، والمساواة.

كل هذه القيم السابقة، كانت بمثابة الأعمدة الأساسية لبناء هذه الحضارة، ولعل هذا سر قوتها ، ورسوخها ، وسر ثباتها رغم العواصف والأنواء على مر الزمن .

ويعترف مؤرخو الحضارة الإسلامية ، بأن هذه الحضارة لم تُفرض على الناس فرضاً ، أو لم تقم بحد السيف والقتل والقهر كما يزعم بعض المستشرقين ، وإنما قامت بالحجة والمنطق والإقناع ، وأن غير المسلمين من الملل الأخرى ، قد نعموا وعاشوا فى ظلها دون إكراه أو قهر .

ولهذا نجد العلامة جوستاف لوبون فى مؤلفه الشهير " حضارة العرب " يقول عن بني الإسلام : " وإذا ما قيست قيمة الرجال بجليل ما لهم كان محمد أعظم من عرفهم التاريخ " ، وأخذ بعض الغرب ينصفون محمداً مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله ، قال العلامة بار على سنت هيلر : " كان محمد أكثر عرب زمانه ذكاء وأشدهم تديناً وأعظمهم رأفة ونال محمد سلطانه الكبير بفضل تفوقه عليهم ، ونعد دينه الذى دعا الناس إلى اعتقاده جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته "[١] .

---

(١) جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ١١٦ .

أولاً : تكريم الإنسان وحقن دمه :

فى القرآن آيات بينات فى تفضيل الإنسان على غيـره مـن الكائنـات. قَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ الإسراء: ٧٠.

وتبدو هذه المنزلة واضحة ، وخاصة فى موقف آدم من الملائكـة ، فهـو أكثـر علمـاً ، وأعلـى منزلـة. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ البقرة: ٣١ .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الحجر: ٢٨ – ٢٩ .

وأكد القرآن حرمة الإنسان ونادى بحقن دمه فى بيئة كانت تـستبيح القتـل وتعيش على أخذ الثأر ، فحرم وأد البنات وقتل الأولاد خـشية إمـلاق. وأوعـد بالعذاب المقيم والغضب واللعنة لمن يزهق روح أخيه الإنسان . قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ النساء: ٩٣.

وقرر القصاص حياة يا أولى الألباب . فكل ابن آدم حرام ، لحمه ودمـه ، وكل ما يبرز معالم الإنسانية فيه ، فلا يعدى عليه بغير حق ، ولا يعذب ولا يمثل به ، ولا يعرض هوان يتنافى وكرامة الإنسان والحرب والسلم في ذلك سواء ، فلا يُؤخذ الخصم فى الحرب على غرة ولا يُنكل به ويُعامل الأسير معاملة كريمة .

فأين حضارة القرن العشرين من هذا ، وفيها تمثيل يعود بنا إلـى وحـشية القرون الأولى وكلنا يذكر ما جرى فى معسكرات الاعتقال أثناء الحرب العالميـة الماضية ، ولا نزال نقرأ ونسمع عما يُلجأ إليه من وسائل التنكيـل فـى بعـض

السجون والمعتقلات . وقدم لنا العلم الحديث طرقاً وأدوات نستخدمها دون شفقة أو هوادة فى إذلال الإنسان وإهدار كرامته (١).

ثانياً : حرية العقيدة والفكر لغير المسلمين :

انتشر الإسلام بالفتوحات ، التى قام بها الخلفاء ، ولم يكن سبيلهم نشر الإسلام بالسلاح كما يزعم البعض ، وكانوا يحترمون عقائد الشعوب التى فتحوها.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة العلامة " جوستاف لوبون " بقوله : " ويثبت لنا سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذى كان يعامل به العرب الفاتحون الأمم المغلوبة ، والذى ناقضه ما اقترفه الصليبيون فى القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامة ، فلم يرد عمر أن يدخل مدينة القدس معه غير عدد قليل من أصحابه وطلب من البطرك صفرونيوس أن يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة ، وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم وأموالهم وبتحريم العبادة على المسلمين فى بيعهم .

ولم يكن سلوك عمرو بن العاص بمصر أقل رفقاً من ذلك ، فقد عرض على المصريين حرية دينية تامة وعدلاً مطلقاً واحتراماً للأموال وجزية سنوية ثابتة لا تزيد عن خمسة عشر فرنكاً عن كل رأس بدلاً من ضرائب قياصرة الروم الباهظة ، فرضي المصريون طائعين بهذه الشروط دافعين للجزية سلفاً ، وقد بالغ العرب فى الوقوف عند حد هذه الشروط والتقيد بها فأحبهم المصريون الذين ذاقوا الأمرين من ظلم قياصرة القسطنطينية النصارى ، وأقبلوا على اعتناق دين العرب ولغتهم أيما إقبال . ونتائج مثل هذه لا تُنال بالقوة كما قلت غير مرة ، ولم يظفر بمثلها من ملك مصر من الفاتحين قبل العرب .

وللفتوح العربية طابع خاص لا تجد مثله لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد العرب ، وبيان ذلك أن البرابرة الذين استولوا على العالم الروماني والترك

---

(١) د.إبراهيم مدكور ، فى الفكر الإسلامى ، الناشر سميركو للطباعة والنشر ، ص ١٦١ .

وغيرهم ، وإن استطاعوا أن يقيموا دولاً عظيمة ، لم يؤسسوا حضارة ، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التى قهروها ، وعكس ذلك أمر العرب الذين أنشأوا أبرع حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التى ظهرت قبلها . والذين تمكنوا من اجتذاب أمم كثيرة إلى دينهم ولغتهم فضلاً عن حضارتهم الجديدة ، واتصلت بالعرب أمم قديمة كشعوب مصر والهنود ، واعتنقت معتقدات العرب وعاداتهم وطبائعهم وفن عمارتهم واستولت بعد ذلك الدور أمم كثيرة على الأقطار التى فتحها العرب فظل نفوذ العرب منها ثابتاً ، ويلوح لنا رسوخ هذا النفوذ إلى الأبد فى جميع البقاع الأسيوية والأفريقية التى دخلوها والتى تمتد من مراكش إلى الهند[١].

ثالثاً : التسامح :

التسامح مبدأ أصيل ، من مبادئ الإسلام ، ولعل هذا سر قوته ، وهو يخاطب الإنسان كإنسان ويعلى من قيمته وإنسانيته كما أنه يدعو إلى القيم الإنسانية العليا " الحق – الخير – الجمال " .

فإذا كان الفرد مدنياً بطبعه ، أي اجتماعياً ، فلابد إذن أن يتعاون كل فرد مع الآخرين ، ونود أن نشير إلى فكرة الحقوق والواجبات ، حق كل فرد من جهة ، وواجباته من جهة أخرى ، إنما تستند إلى ضرورة الالتزام بالتسامح فى السلوك ، وإذا اعتدى الفرد على حقوق الآخرين ، أى أخذ ما ليس حقاً له ، فإنه يكون شريراً وليس خيراً ولا متسامحاً . وإذا اعتدت أمة على أمة أخرى ، فإن هذا الاعتداء بغير حق ، يكون معبراً عن الفعل الشرير وليس عن السلوك الخير .

والواقع أننا نجد الكثير من مفكرينا قد حرصوا على البحث فى التسامح كقيمة أو مثل من المثل العليا وذلك من خلال زوايا عديدة ، إذ أن البحث فى التسامح مرتبط بالعديد من المباحث الخلقية الإنسانية .

---

(١) جوستاف لوبون ، المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

نجد هذا عند فيلسوف الأخلاق الشهير " مسكويه " ، كما نجده عند ابن سينا والغزالى فى المشرق العربى ، بل نجد هذا أيضاً عند المفكرين الذين يمثلون نوعاً من تجديد الفكر الإسلامي العربي ، مثل جمال الدين الأفغاني حين يكتب عن الأمور التى تتم بها سعادة الأمم. وذلك فى رسالته الرد على الدهريين. والشيخ محمد عبده فى رسالته التوحيد حين يبحث فى مسألة الخير والشر وعلاقتها بالعقيدة والعمل ، ومحاولته إقامة نوع من التناسب أو التوازن بين وجهتي النظر الأخلاقية والجمالية تماماً كما نقول – إن لفظ " الحسن " فى العربية يبين لنا فى وقت واحد " الجمال " و " الخير " ولفظ القبيح يعنى الشر والدمامة كما نجد هذا واضحاً أيضاً عند المفكر محمد إقبال فى ربطه بين الفن والأخلاق ورفضه لكل فن لا يلتزم بالأخلاق والقواعد الخلقية السامية النبيلة الخيرة .

وما أحوجنا إلى البحث فى هذه الجوانب أو المجالات التى تبين لنا حقيقة القيم والمثل العليا ، وبحيث نواصل ما نبهنا إليه باحثون كثيرون من أمثال الشيخ محمد عبده ومحمد إقبال والشيخ دراز. وكم نجد فى دراساتهم العديد من المباحث الخلقية والربط بينها بصورة أو بأخرى وبين المباحث الخاصة بـ " الحق " و " الجمال " فالفعل الحق لا يصدر عن إنسان يهوى الكذب والفعل الخير لا يكون صادراً عن إنسان يفكر فى الشر دوماً والفعل الجميل والفعل الحسن كما يقول بعض مفكرينا لا يصدر عن نفس قبيحة دميمة. إن الأفكار يجب أن تدور حول التسامح [1].

لقد رسم الإسلام للتسامح صورة لا تجد لها شبيهاً فى دين آخر ولا فى تشريع حديث أو معاصر ، رفع شأن الإنسان ، وسلم بحقوقه بصرف النظر عن دينه وعقيدته. ونوه بالصلة بينه وبين الأديان السماوية الأخرى ، وسما بأهل الكتاب على من سواهم من كفار ومشركين وأفسح السبيل لمعاشرتهم والعيش معهم ، ومتى استسلموا أصبحوا أهل ذمة يتولى المسلمون حمايتهم ، ويتركونهم

---

(١) د.عاطف العراقى ، دراسة: التسامح من منظور إنسانى تنويري ضمن الكتاب التذكارى عن الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى ، ص ٣٥٦ .

أحراراً فى كسب معيشتهم وأداء عبادتهم وقامت الكنائس والبيع إلى جانب المساجد فى بعض المدن والقرى الإسلامية ولم يقف التسامح عند هذا ، بل كثيراً ما مُنح أهل الكتاب بعض الامتيازات ، وتولوا بعض الوظائف الكبرى .

وسلك الرسول الكريم فى حياته مسلكاً يفيض بالعطف والشفقة ويعطى درساً أفاد منه الصحابة والتابعون ومن جاء بعدهم من عامة المسلمين فتزوج مارية القبطية التى أنجبت ابنه إبراهيم. وعامل الرسول يهود المدينة معاملة كريمة فعاهدهم على الدفاع عن النفس والمال ، وضمن لهم حياة آمنة مطمئنة. ولكنهم نقضوا عهدهم ، وبرهنوا على أنهم لا أمان لهم فأُخرجوا وأُبعدوا عن دار الإسلام.

وبعد أن اكتملت الفتوحات الإسلامية عاش اليهود والنصارى مع المسلمين جنباً إلى جنب ، عيش أبناء الوطن الواحد. وأسهموا فى بناء الحضارة الإسلامية إسهاماً ملحوظاً ، ووضعوا لبنات فى بنيات الثقافة العربية. وربطوا الفكر الإسلامى بالثقافات الأخرى شرقية كانت أو غربية. وكان لهم فى حركة الترجمة الإسلامية الكبرى نصيب واضح ، عُرف منهم الطبيب ، والكيميائى ، والرياضى، والفلكى ، ومن بينهم من نال حظوة خاصة لدى الخلفاء والأمراء. ولا نكاد نعرف فى الإسلام اضطهاداً دينياً شبيهاً بتلك الاضطهادات الدينية الكبرى التى سجلها التاريخ القديم والحديث ، ولا نزال نشهد بعضاً منها فى تاريخنا المعاصر وأخشى ما نخشاه أن تورث الصهيونية العالم الإسلامى هذا المسلك البغيض وأن تغرس فيه ميلاً إلى الانتقام والاضطهاد [١].

ويقص علينا التاريخ من تسامح الإسلام وسعة روحه ، ممثلاً فى خلفائه ، ما يندهش له الإنسان .

فها هو الخليفة المنصور العباسى ، مثلاً ، يعرض الإسلام على طبيب نصرانى عالجه فشُفى على يديه فيجيب الطبيب قائلاً : أنا على دين آبائي أموت ،

---

(١) د.إبراهيم مدكور ، فى الفكر الإسلامى ، سمير للطباعة والنشر ، ص ١٧٣ .

وحيث يكون ابائى احب أن أكون فى الجنة او فى جهنم. عند ذلك يبتسم الخليفة ويصرفه موفور العطية .

وهذا المأمون العباسى يعرض الإسلام على زعيم المانوية ، بعد أن ناظره العلماء وأفحموه ، فيرد على المأمون قائلاً : نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة، وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم فيرضى المأمون بهذا الجواب ويبعث مع المانوى قوماً يحفظونه من العامة .

هذه أمثلة حية نطرحها على شبابنا اليوم ليعرفوا منها الدرس والقدوة ، والنظر الصحيح إلى حضارتنا العربية الإسلامية .

ولما كان الإسلام يحترم الديانات السابقة ، وكان الخلفاء أيضاً بفضل الإسلام أيضاً يعظمون كل علم وحق وخير ورقى إنسانى ويعرفون الفضل لأهله فإن ذلك دعاهم إلى الاستفادة من مواهب الأمم المتحضرة ، فمهدوا السبيل إلى تعاون إنسانى واسع النطاق ، فتضافرت فى دولة الإسلام جميع مواهب الأمم العقلية والفنية. ومنذ عهد معاوية بن أبى سفيان نجد الخلفاء يتخذون من علماء أهل الكتاب من يستشيرونه أو يستفيدون منه فى تثقيف أبنائهم أو فى وظائف ينهضون بعلمهم فيها ، جيلاً بعد جيل ، وقد تظل الأسرة الواحدة " أسرة بختيشوع مثلاً فى العصر العباسى " أكثر من قرن تمد الدولة بالأطباء والكّتاب والموظفين ، كما نجد من أهل الكتاب عمالاً ووزراء فى الدولة الإسلامية " سواء فى الأندلس الإسلامية أو فى مصر " يؤدون أعمالهم بإخلاص ويتمتعون هم وأبناء دينهم بالحرية والإكرام ، فى ضوء قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ البقرة: ٢٥٦ .

وفى ظل حضارة الإسلام نشأ الفكر العلمى والفلسفى وازدهر ازدهاراً كبيراً عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، بل عند غيرهم من أتباع نحل دينية وفلسفية سابقة كالحرانيين ، وكان ممثلوا ذلك الفكر موضع التقدير والاحترام .

وفى هذه الظروف كلها ، وفى جو هذه الحضارة الزاهرة ، كيف لا تدخل الأمم فى الإسلام وتشارك فى حضارته ، وكيف لا يتسابقون بل يتنافسون فى ذلك؟[١] .

رابعاً : الإسلام يعلى من قيمة الجمال :

الإسلام دين الجمال يكره القبح ، وينّفر المسلمين منه ، وتعاليم الإسلام كلها ، تحث على الجمال فى كل شئ والحديث الصحيح يقول : " إن الله جميل يحب الجمال " والمسلم مأمور بأن يأخذ زينته عند كل مسجد . وكما يكون الجمال مادياً كما نراه فى الأجسام والأشياء من حولنا يكون أيضاً جمالاً معنوياً يتمثل فى الأخلاق الجميلة والصفات النبيلة .

والكون بما فيه من تناسق وإحكام أعظم مثال على الجمال الإلهى فى هذا الوجود ، وأوصاف الجنة فى القرآن الكريم تُعد لوحات فنية رائعة الجمال .

إننا نفترى على الإسلام إذ نجعل منه ديناً ينّفر من الجمال ويدعو إلى الكآبة والتجهم .

إننا نظلم الإسلام حين نجعل منه ديناً عدواً للعواطف والوجدانيات ، وعدواً للتعبير الجمالى عن هذه العواطف بقصيدة جميلة ، أو أغنية ذات كلمات عفيفة أو لحن موسيقى يرقق المشاعر ، أو رسم جميل يبرز آيات الله فى الكون .

ولا جدال أن النفس الجميلة التى تتسم بالذوق الرفيع هى نفس سوية ، ومن هنا حرص الإسلام على ذلك أشد ما يكون الحرص، قَالَ تَعَالَى:﴿ ۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴿٣١﴾ ﴾ الأعراف: ٣١، ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ ﴿٣٢﴾ ﴾ الأعراف: ٣٢، فالنفس التى تتسم بالشعور النبيل الجميل هى النفس التى تتهذب بالأخلاق الفاضلة .

---

(١) د.محمد عبد الهادى أبو ريدة ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .

على هذا الدرب صنع الإسلام الرجال فى حضارته الزاهرة فـــالأخلاق لا تنفصل عن الجمال بل كلاهما وجهان لعملة واحدة .

الفصل الرابع

"خصائص الحضارة الإسلامية"

- حضارة إنسانية
- حضارة واقعية
- حضارة واسعة الأفق
- حضارة محبة وسلام
- حضارة مرنة
- التسامح
- الحيوية والاستمرار
- الإيمان

خصائص الحضارة الإسلامية

لكل حضارة فى التاريخ خصائص تميزها وتضفى عليها طابعاً خاصاً يكسبها لونها الحضارى. وتتضافر عدة عوامل فى توفير هذه الخصائص وتنويعها. وأولى هذه العوامل هى الأسباب التى أسهمت فى نشأة هذه الحضارة، فقد تكون هذه الأسباب اقتصادية كالحضارة الفينيقية أو روحية كالحضارات التى ارتبطت بالديانات والعقائد، أو غير هذا وذاك من الأسباب. كذلك تسهم البيئة التى ولدت فيها هذه الحضارة أو تلك، وازدهرت وترعرعت بين ربوعها، فى تشكيل الحضارة وإكسابها قدراً من لونها، وذلك من ناحية طبيعة البيئة إن كانت صحراوية أو زراعية أو ساحلية أو جبلية أو جزورية. يُضاف إلى هذا، الموقع الجغرافى من ناحية، والمناخ من ناحية أخرى، إذ أن هذه كلها عوامل تؤثر فى نشاط الإنسان وتكيف ذلك النشاط وتضفى عليه طابعاً خاصاً. فإذا أضفنا إلى ذلك كله خصائص المجتمع البشرى الذى ينهض بأعباء هذه الحضارة، وتكوينه الجسمانى والعقلى والنفسى من ناحية، وتراثه الذى ورثه عن آبائه وأجداده من ناحية أخرى ... استطعنا أن ندرك أهم العوامل التى تكيف حضارة من الحضارات.

وعندما نقول أن لكل حضارة خصائصها المميزة، فإننا لا نعنى أن الحضارات البشرية كلها مختلفة تماماً عن بعضها البعض. ذلك أن قصة الإنسان على سطح الأرض هى دائماً عبارة عن أخذ وعطاء، وقد أشرنا إلى أن الحضارات البشرية تتفاعل فى كثير من الحالات مع بعضها البعض وتتأثر ببعضها البعض. هذا إلى أن هناك عنصراً مشتركاً فى كافة الحضارات هو عنصر الإنسان نفسه. والبشر جميعاً مهما تتباين سلالاتهم وتختلف مستوياتهم الحضارية وتتباعد بلادهم فى موقعها وطبيعتها، فإن هناك حداً أدنى من التشابه فى الفكر والنظرة إلى الحياة يربط بينهم ويميزهم عن غيرهم من المخلوقات. ويترتب على ذلك ضرورة وجود حد أدنى من التشابه بين الحضارات البشرية

مهما يتباين الزمان والمكان، وهذا الحد الأدنى مرتبط بطبيعة الإنسان نفسه ومطالبه فى الحياة. وإنما كل ما نعنيه، هو أن مع وجود هذا القدر – الذى يكون ضئيلاً غير محسوس – من التشابه بين الحضارات البشرية، فإن هناك خصائص تنفرد بها كل حضارة تميزها عن غيرها من الحضارات وتعطيها طابعاً خاصاً بها.

وبالنسبة للحضارة الإسلامية، اتصفت بمميزات بارزة، بعضها مُكتسب من الإسلام بروحه وتعاليمه ومناهجه العقلية والروحية والمعيشية والسلوكية، والبعض الآخر مكتسب من العروبة التى ولد الإسلام بين أحضانها، ببيئتها ولغتها وتراثها الفكرى والمعنوى وتقاليدها وعاداتها. هذا بالإضافة إلى أن الحضارة الإسلامية – بفضل ما اتصفت به من مرونة – تأثرت بأوضاع البلاد والشعوب التى انتشر فيها الإسلام، والتى غدت جزءاً من الدولة الإسلامية، فضلاً عن تأثرها ببعض عناصر الحضارات الأخرى البعيدة، سواء كانت سابقة أو معاصرة.

ونستطيع أن نجمل أهم خصائص الحضارة الإسلامية، وسماتها العامة فيما يلى:-

أولاً: أنها حضارة إنسانية

تستهدف أولاً وأخيراً سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة، ودفع الشر عنه، وتوفير أفضل مناخ لحياة آمنة مطمئنة لكافة البشر. وإذا كانت هذه الحضارة قد انطلقت من منطلق إسلامى، فإن الله عز وجل أرسل محمداً -ﷺ- رحمة للعالمين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧ ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

وحسب هذه الحضارة أن هدفها الأسمى كان دائماً خير الإنسان، وبناء المجتمع المتماسك المتآخى الذى يحمى الضعيف والفقير، ويعنى بأمر المريض والطفل والشيخ، ويعطى المرأة حقها فى حياة كريمة تمكنها من النهوض على خير وجه برسالتها كزوجة وأم وابنة وأخت. كذلك نادت هذه الحضارة بتطبيق

المبادئ الخلقية الكريمة التى تدخل جميعاً تحت شعار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ولم تعرف الحضارة الإسلامية الاضطهاد الدينى والمذهبى، وإنما رفرفت فوقها راية عالية، تحمل قوله تعالى ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ الكافرون: ٦. فتمتع الناس جميعاً بحرية الفكر البناء، وحرية العقيدة تحت مظلة الإيمان بالله، وحرية العمل والحركة من أجل الخير، وحرية الكلمة الأمينة الصالحة ...

ولا شك فى أن هذا الاتجاه الإنسانى فى هذه الحضارة مستمد من روح الإسلام. فالإسلام كرم بنى آدم وجعلهم فى مرتبة فوق سائر المخلوقات. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ الإسراء: ٧٠. ومن مظاهر هذا التكريم أنه خلق الإنسان فى أحسن تقويم، وأنه علم آدم – جد البشر – الأسماء كلها، وأمر الملائكة بالسجود له. يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ التين: ٤، ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ البقرة: ٣١، ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ البقرة: ٣٤.

ولا أدل على أن هذه الحضارة إنسانية بكل معنى الكلمة، تستهدف خير الإنسان وراحته وسعادته، من أن الإسلام – وهو القوة الكبرى التى انطلقت منها هذه الحضارة – يؤكد مبدأ خطير، هو أن الله – عز وجل – سخر للإنسان ولخدمته ولنفعه وسعادته، كل ما خلقه فى السموات والأرض. وبعبارة أخرى، فإن كل شئ فى الكون مخلوق لخير الإنسان ولخدمته. فللإنسان سخر الله سبحانه وتعالى الشمس والقمر والنجوم، وسخر له البر والبحر، وسخر له الهواء والفضاء، وسخر له الحيوان والدواب، وسخر له الشجر والنبات ... وغير ذلك مما فى السموات والأرض. انظر إلى قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ الجاثية: ١٣، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ لقمان: ٢٠، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ

﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ النحل: ١٢، ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ النحل: ١٤، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ ﴾ الحج: ٦٥، ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ الجاثية: ١٢.

وبقى أن يحسن الإنسان استخدام هذه النعم، وأن يستمد منها ما يعود عليه وعلى المجتمع البشرى بالخير، وأن يشكر الله تعالى على عظيم نعمه، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ إبراهيم: ٣٤.

ثانياً: أنها حضارة واقعية

نظرت إلى الأمور وإلى الحياة ومشاكلها وآفاقها نظرة حسية واقعية، بعيداً عن الخيال والافتراضات الوهمية، الأمر الذى يجعل الفارق واضحاً بينها وبين بعض الحضارات الأخرى، كالحضارة اليونانية التى قامت على أساس التفكير النظرى المجرد الذى أغفل الواقع الملموس.

وهذه النظرة الواقعية للأمور مستمدة أساساً من روح الإسلام، ومن القرآن الكريم الذى طالب الإنسان أن يتفكر فى نفسه ويتأمل فى واقعه. يقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ﴾ الروم: ٨. هذا إلى أن القرآن الكريم قدم للناس آيات محسوسة فى الليل والنهار، والشمس والقمر، واختلاف الظل ... وغير ذلك من المحسوسات، وطالب الإنسان أن يتدبرها ويتعقلها ويدرسها، وألا يمر عليها أصماً وأعمى. يقول تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ فصلت: ٣٧، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ الفرقان: ٤٥، ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) ﴾ يونس: ٦، ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) ﴾ الفرقان: ٧٣.

ثالثاً: أنها حضارة واسعة الأفق

بمعنى أنها لم تختص بجانب واحد من جوانب النشاط البشرى، ولا بجنس دون آخر من أجناس البشر. فالحضارة الإسلامية استوعبت كافة ألوان نشاط الإنسان، العقلى واليدوى، المعنوى والجسمانى، الروحى والمادى. وهى فى الجانب العقلى لم تترك علماً من العلوم التجريبية أو النقلية إلا أسهمت فيه بسهم وافر.

وهذه الثروة الضخمة التى خلفها علماء هذه الحضارة فى الكيمياء والفيزياء والعلوم الطبية والفلك والرياضيات والجغرافيا، فضلاً عن الفلسفة والمنطق، لخير شهادة على سعة أفق الحضارة الإسلامية. أما العلوم النقلية، فإن علماء المسلمين لم يقفوا عند حد الإبداع فى الجانب الدينى من تلك العلوم، كالحديث والتفسير والقراءات والفقه والتشريع، وإنما أبدعوا أيضاً فى الأدب – شعراً ونثراً – وفى علوم اللغة العربية، من نحو وصرف وبلاغة وبيان، فضلاً عن علم التاريخ الذى احتل بألوانه المتعددة مكاناً شامخاً فى تراث الحضارة الإسلامية. فإذا انتقلنا إلى الجانب الروحى فى تراث الحضارة الإسلامية، وجدناه ضخماً، يتناسب مع طابع الإيمان الذى اتصفت به هذه الحضارة. وإن ما يتضمنه التراث الإسلامى من دراسات حول صفات وقدرات الله عز وجل، وكيفية تنقية النفس وتهذيب الطبع، يفوق ما تزخر به أية حضارة أخرى.

وكان النشاط اليدوى فى الحضارة الإسلامية موضع احترام وتقدير، فعكف الصناع والفنانون على إنتاج أروع ما يعتز به تراث البشرية من منشآت جميلة، وتحف دقيقة، ورسومات فائقة الحسن، وسفن وأساطيل تجوب البحار. يُضاف إلى هذا النشاط الجسمانى فى مجالات السلم والحرب، وهو نشاط ارتبط بالفكر، ووجهه العقل توجيهاً بناء فى ظل الضمير الدينى، مما عاد على البشرية بالخير العميم.

ثم أن النشاط الواسع الأفق المتعدد الاتجاهات، أظلته مجموعة من القيم السامية التى كثيراً ما تفتقر إليها بعض الحضارات الأخرى. ويكفى أن نقارن بين الفروسية بمعناها وأركانها وآدابها فى ظل الحضارة الإسلامية، وبينها فى حضارة الغرب الأوربى فى نفس الحقبة من العصور الوسطى. فبينما ارتبطت الفروسية عند المسلمين بالشجاعة فى الحق، والشهامة فى غوث الملهوف، والمروءة فى حماية المستجير والضعيف، إذ بالفروسية فى ظل النظام الإقطاعى فى غرب أوربا ترتبط باللصوصية والتربص بعابر السبيل، والتفاخر بخديعة الآمنين والغدر بهم.

هذا إلى أن سعة أفق الحضارة الإسلامية تتمثل أيضاً فى أنها لم تختص بجنس دون آخر، وإنما هى حضارة العرب والفرس والترك والبربر، وأهل الشام ومصر والهند ... وغيرهم من أبناء الأمة الإسلامية الذين جعل منهم الإسلام أخوة متحابين وبناءً مرصوصاً يشد بعضه بعضاً.

رابعاً: حضارة محبة وسلام

تتصف الحضارة الإسلامية بأنها حضارة محبة وسلام. فالإسلام ينهى عن البغضاء والتشاحن، ويكره العنف والعدوان. حسب الإسلام أن تحيته تحية سلام، وبانتشار الإسلام انتشر السلام فى البلاد التى دخلت تحت مظلة الإسلام، وأى نشاط حضارى لا يمكن أن يزدهر إلا فى ظل الأمن والسلام، حيث يستطيع التاجر أن يأمن على أمواله، ويعكف المعلمون والمتعلمون على الدرس والتحصيل بنفوس مطمئنة. ولم يكن عجباً أن أطلق بعض المستشرقين على حالة السلام التى شملت العالم الإسلامى من المحيط الأطلسى غرباً إلى جوف القارة الآسيوية شرقاً، اسم " السلم الإسلامى " "Pax Islamic" .

على أنه يلاحظ أن الإسلام فرق بين السلام والاستسلام، فليس معنى الحث على السلام والتمسك به التفريط فى الحقوق، وإحناء الرأس أمام المعتدين. إن الإسلام دين دعوة وكرامة، ولذا فإنه أمر المسلم بالرد على العدوان، وعدم

التخاذل أمام المعتدين، بحيث يعيش المسلم دائماً مرفوع الرأس، مما يوفر الكرامة للفرد والمجتمع، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ لقمان: ١٨، ويقول عز وجل: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ البقرة: ١٩٤.

خامساً: المرونة

فالحضارة الإسلامية حضارة مرنة، غير جامدة، لا تقف عند حدود صلبة، إلا أن تكون حدود الدين بما يحويه من قيم خلقية. ومن هذا المنطلق، فإن الحضارة الإسلامية، تتقبل كل ما هو نافع مفيد، طالما أنه لا يتعارض مع أحكام الدين ومكارم الأخلاق.

وعندما شرع المسلمون فى بناء صرح حضارتهم، لم يترددوا فى الاستفادة من تراث الحضارات السابقة – وثنية كانت أو كتابية –، فاحترموا النافع من تراث السابقين، ولم يحرقوا كتب الوثنية مثلما فعل رهبان الأديرة فى الشطر الأول من العصور الوسطى، وإنما حرصوا على اقتنائها، وبذلوا فى ذلك الجهد والمال، بقصد دراستها، واستخلاص ما فيها من خبرات ومنافع. وهم فى هذه المسيرة الطويلة يحكّمون ضمائرهم وعقولهم، ويحسنون اختيار غذائهم الفكرى، ويفرقون دائماً بين الغث والسمين.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد اتصفت بالمرونة، فإن هذه المرونة جعلتها أبعد ما تكون عن التزمت. وهكذا أطلق الإنسان – فى ظل هذه الحضارة – العنان لفكره، بحيث تمكن من التمتع بقدر من حرية الفكر والعمل لا نظير له فى التاريخ. كل ما فى الأمر هو أنه روعي فى هذه الحرية ألا تخرج عن دائرة الإيمان أو عن حدود الأخلاق. وفى ظل هذه الحضارة تمتع المسلم بكل ما خلقه الله له من ضروب المتعة والبهجة، بشرطين اثنين لا ثالث لهما : **الشرط الأول:** هو أن يلتزم فى متعته بما أحله الله له ويتجنب ما حرمه الله عليه. **والشرط**

الثاني: هو أنه، حتى فى حدود المتعة الحلال، عليه أن يكون معتدلاً، فلا يسرف، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ الأنعام: ١٤١، الأعراف: ٣١.

وبينما حرمت الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى على أتباعها دراسة كتب أرسطو، وأصدرت البابوية تعاليمها بتكفير آراء هذا الفيلسوف ومنع تدريسها وتداولها، عكف فلاسفة المسلمين – فى حرية تامة – على دراسة فكر أرسطو، وتناولوه بالشرح والتفنيد، حتى لقد وُصف ابن رشد بأنه أعظم شارح لفلسفة أرسطو.

ثم أن الحضارة الإسلامية لم تقتصر على شئون الفكر والحياة، وإنما امتدت إلى كافة مظاهر هذه الحضارة، ومنها اللغة والفن. فاللغة العربية – وهى أداة هذه الحضارة المعبرة عن فكرها وروحها وتراثها – تتصف بالمرونة المطلقة التى تتضح فى قدرتها على اشتقاق مفردات جديدة من جذور عربية أصيلة، لتساير كل ما هو جديد فى موكب الحضارة. هذا فضلاً عن قدرتها على تعريب ألفاظ أعجمية الأصل، وصياغتها فى قالب عربى حلو المذاق يستسيغه الذوق العربى وغير العربى ممن شملتهم هذه الحضارة.

ومثل هذا يقال عن الفن العربى الإسلامى، وهو مظهر من أقوى مظاهر الحضارة الإسلامية، فقد اتصف بالمرونة المطلقة فى شتى جوانبه، بحيث ساير ظروف الزمان والمكان، وتأثر بفنون الشعوب التى احتوتها الدولة الإسلامية أو التى احتكت بها حضارياً. هذا مع قدرة هذا الفن على الاحتفاظ بطابع إسلامى عربى مميز، جعل منه ظاهرة حضارية لها شخصيتها وكيانها وطابعها الخاص الذى لا يوصف إلا بأنه إسلامى عربى.

سادساً: التسامح

ذلك أن مرونة الحضارة الإسلامية جاءت مقرونة بمسحة أصيلة من التسامح، وهو تسامح لم يقتصر على تقبل كل ما ينفع، وكل ما لا يتعارض مع

أحكام الدين والعقل والأخلاق، من عناصر الحضارات الأخرى ... إنما اتسعت دائرة أفق ذلك التسامح لتشمل أتباع الديانات الأخرى غير الإسلامية، وبخاصة أهل الكتاب من مسيحيين ويهود.

ومن المعروف أن الإسلام التزم بأسلوب واضح فى الدعوة إليه. وقد تحدد هذا الأسلوب فى القرآن الكريم بالحكمة والموعظة الحسنة. ومن هذا المنطلق ترك لأهل الكتاب الحرية فى الاستجابة إلى نداء الحق والعقل، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ آل عمران: ٢٠. وتحت مظلة هذا الشعار تُرك أهل الكتاب فى رحاب الإسلام أحراراً، يتمتعون بما لهم من حقوق ويؤدون ما عليهم من واجبات.

والواقع أن أهل الكتاب بالذات حظوا فى ظل الحضارة الإسلامية بقدر من الحرية لم يعرفوه فى أى زمان أو مكان آخرين. بل إن المسيحيين الذين تعرضوا قبل الإسلام للاضطهاد والتعذيب من حكامهم المسيحيين بسبب اختلافهم عنهم فى المذهب الدينى، نعموا بحرية العقيدة وحسن المعاملة تحت مظلة الإسلام. أما اليهود الذين ظلوا يعانون آلام الاضطهاد الوحشى فى ظل الحكومات المسيحية فى غرب أوربا طوال العصور الوسطى، فقد عاشوا فى شتى بلاد الدولة الإسلامية، عيشة إنسانية كريمة.

ولم يقتصر الأمر على احترام دور العبادة الخاصة بأهل الذمة، وإنما سُمح لهم ببناء الجديد منها فى المدن الإسلامية. كذلك لقى رجال الدين من الطائفتين قدراً وافراً من الاحترام على الصعيدين الرسمى والشعبى. وإن الباحث ليسترعى نظره ذلك العدد الكبير من أهل الذمة الذين تقلدوا أسمى الوظائف فى الدولة الإسلامية، ومنها الوزارة، كما مارسوا شتى المهن والأعمال وبخاصة التجارة والصيرفة والطب.

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن الإنتاج الحضارى - وبخاصة الفكرى - يحتاج إلى الإحساس بالأمن وراحة البال والاطمئنان. لذلك لم يكن عجباً أن أسهم فى بناء الحضارة الإسلامية عدد غير قليل من غير المسلمين، فبرز من المسيحيين واليهود - بل من الصابئة والوثنيين - علماء مبرزون وفنانون مبدعون. وهؤلاء لا ينبغى وضعهم على هامش هذه الحضارة، أو خارج أسوارها، وإنما هم جزء من بنيتها، لأنهم نبغوا تحت مظلة الإسلام، واستطاعوا بفضل ما وفره لهم من تسامح وأمن واستقرار أن يحققوا ما حققوه من إبداع فى شتى ميادين الآداب والعلوم والفنون. ولذا فهم ثمرة من ثمار تسامح الإسلام، وفصلة من نتاج الحضارة الإسلامية.

سابعاً: الحيوية والاستمرار

بمعنى أن الحضارة الإسلامية ظلت حية منذ مولدها، رغم كل ما تعرضت له من هجمات خارجية شنها عليها أعداء الإسلام وأعداء العروبة. ولئن كانت الدولة الإسلامية قد تعرضت فى مرحلة معينة من مراحل تاريخها للتفتت والعنف، فإن الحضارة الإسلامية لم ترتبط إرتباطاً مصيرياً بالأوضاع السياسية. بل على العكس يثبت الواقع التاريخى أن الحضارة الإسلامية بلغت ذروة الازدهار فى القرنين الثالث والرابع للهجرة - التاسع والعاشر للميلاد - وهى المرحلة التى ظهرت فيها علامات الضعف السياسى والانقسام والتفتت واضحة على الدولة. ونجد شبيهاً لهذه الظاهرة فى كثير من الدويلات والأجزاء التى تفرعت عن الدولة الإسلامية الكبرى. فحضارة المسلمين فى صقلية لم تبلغ ذروة الازدهار والنضج إلا فى ظل النورمان بعد أن سقطت دولة المسلمين سياسياً فى تلك الجزيرة، وذلك فى القرن الثانى عشر للميلاد.

لقد كان للحضارة الإسلامية مراكز عديدة انتشرت فى طول تلك الدولة الفسيحة وعرضها. ومن هذه المراكز - على سبيل المثال لا الحصر - المدينة المنورة، ودمشق والفسطاط والقيروان والبصرة وقرطبة وبغداد والقاهرة ...

وغيرها، وكلها كانت بمثابة منارات يشع منها نور تلك الحضارة شرقاً وغرباً. ولا شك فى أن هذه المراكز صارت بمثابة جذور تمد شجرة الحضارة بأسباب الحياة، ولئن ذبل جذر منها أو مات، فإن هناك جذوراً بديلة تستمد منها تلك الشجرة عناصر القوة والبقاء. وهكذا سقطت بغداد فى قبضة المغول فى أواسط القرن السابع الهجرى – الثالث عشر للميلاد– فرفعت القاهرة لواء أعظم نهضة حضارية عرفها العالم فى أواخر العصور الوسطى، بحيث لم يخبُ للحضارة الإسلامية نور.

ومن الخطأ القول أن الحضارة الإسلامية تحتاج اليوم إلى إحياء أو بعث، لأن هذه الحضارة لم تمت مطلقاً لنفكر فى إحيائها أو بعثها. كل ما فى الأمر هو أن بعض أوراق الشجرة قد ذبلت وتساقطت نتيجة لإهمال أبناء هذه الحضارة وأصحابها، وعدم رعايتهم لها. أما جذور الشجرة فقوية تنبض بالحياة، تمتد بعيداً فى أعماق التاريخ من ناحية، وفى تكوين البشر من ناحية أخرى. ويكفى أن يعنى أبناء هذه الحضارة بأصولها، ويتمسكون بقيمها ومثلها، ليخضر ما جف من أوراقها، وتتحول الشجرة إلى دوحة مورقة من جديد.

ثامناً: الإيمان

بمعنى أن الحضارة الإسلامية حضارة إيمان، إيمان بالله عز وجل وقدرته، وبرسالاته السماوية. إن هذه الحضارة استمدت اسمها من الإسلام، بكل ما يحمله من قيم ومبادئ ومثل. وُلدت هذه الحضارة وشبت وسط جو مشبع بروح الإيمان، بكل ما يعنيه الإيمان من اعتماد على الله واعتداد بالنفس وثقة فى المستقبل. وظلت هذه الحضارة يحيط بها سياج من الإيمان، بكل ما يعنيه الإيمان من مكارم الأخلاق وصفاء القلوب.

وعندما نقول أن هذه الحضارة ترعرعت بين رحاب الإسلام، ينبغى أن نذكر أن الإسلام ربط العلم بالإيمان، وجمع بين المؤمنين والراسخين فى العلم فى صعيد واحد. يقول تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾

النساء: ١٦٢. ويقول عز وجل : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ المجادلة: ١١. ومن الأهمية بمكان أن نوضح أن المقصود بالعلم فى الإسلام ليس العلوم الدينية فحسب، بل كل علم نافع يعود على الإنسان بالخير ويحقق صلاح الدين والدنيا. يقول الرسول ﷺ : " العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان "، وبذلك جعل الطب وعلم مداواة الأبدان على قدم المساواة مع العلوم الدينية، نظراً لأن الإنسان لا يمكن أن ينهض بواجباته تجاه ربه وتجاه المجتمع الذى يعيش فيه، وتجاه نفسه، إلا إذا كان سليم الجسد معافى البنية. ومثل هذا يقال عن كل علم نافع.

وقد نبعت من الإيمان كل الصفات السامية التى ميزت الحضارة الإسلامية على غيرها من الحضارات التى عرفها البشر سابقاً ولاحقاً، كالعفو والتسامح والمحبة وسعة الأفق، والمساواة بين البشر، والحرية، والشجاعة فى الحق ، والصبر والمثابرة.

وتحت مظلة الإسلام لا تعارض بين العلم والإيمان، بل إن الإيمان دعامة العلم النافع، والعلم النافع دعامة الإيمان، كلاهما يشد أزر الآخر. وحسب الإسلام أنه يحث الإنسان على تحكيم عقله فى كل ما يعن له من مظاهر طبيعية، لأن هذا هو السبيل إلى إدراك قوة الله وعظمته. وبعبارة أخرى، فإن الإسلام يدعو إلى تعقل الإيمان، بمعنى أن يتعقل المسلم آيات الله، ليكون إيمانه أكثر رسوخاً.

ومن صفات المؤمن أنه يتميز بنفس مطمئنة، وفكر مستقر، وقلب ثابت، وهى الصفات التى لا يمكن بدونها أن يكون الإنسان عالماً. وهكذا، فإن الإيمان يتوج العلم بهالة من الخير والبركة والطمأنينة والتعقل، تجعل منه علماً نافعاً وعملاً مثمراً.

وليس حقيقياً ما يدعيه بعض المغرضين من أن الدين يدعو إلى التواكل، وأن الإيمان يرتبط بالجمود والرجعية. ذلك أنه من مظاهر عظمة الإسلام حثه على العمل والإنتاج، ونهيه الإنسان عن أن يعيش عالة على غيره. يقول تعالى:

﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾ التوبة: ١٠٥. ومن ناحية أخرى، فـــإن الإيمان يعنى الإصلاح والتقدم. ذلك أن كل ديانة سماوية جاءت فى حقيقة أمرهـــا ثورة على الفساد، ودفعة لرفع الظلم عن البشر، وتحريره مـــن أوضــــاع عفنـــة متوارثة. كل ما فى الأمر هو أن الدين السماوى ينشد الإصلاح فى نطاق الأخلاق الكريمة، والقيم المثالية، واحترام آدمية الإنسان، وحمايته من تحكم أخيه الإنـــسان فيه، والحفاظ على حقوقه المشروعة.

وبعد ، فإن هذه خصائص الحضارة الإسلامية، التى أكسبتها طابعها، والتى نمت فى ظلها. وبفضل التمسك بما فى هذه الخصائص مـــن قـــيم، حققـــت هـــذه الحضارة ما حققته من سمو ورفعة، حتى غدت أعظم حضارة عرفها العالم أجمع فى العصور الوسطى. ومنها استمدت النهضة الأوربية الحديثة كثيراً من المعارف والعلوم التى أقامت عليها بناءها.

الفصل الخامس

"حرية التفكير في الإسلام"

- مكانة التفكير فى الإسلام
- عوائق التفكير السليم
- ضوابط التفكير السليم
- نماذج من حرية التفكير فى الإسلام
- الفكر الإسلامى لم يعرف الحجر على الفكر
- أثر حرية التفكير فى ظهور العلماء فى الحضارة الإسلامية

حرية التفكير في الإسلام

(١) مكانة التفكير فى الإسلام :

يجدر بنا فى البداية ، أن نشير إلى مكانة التفكير فى الإسلام ، لمـا لهـذا الموضوع من أهمية فى واقعنا المعاصر.

نود أن نؤكد فى البداية على أن الإسلام دين العقل والفكر والنظر والتأمل ، ولو رجعنا إلى الآيات القرآنية التى تعلى من شأن العقـل والتفكيـر لوجـدنا أن القرآن الكريم حافل بالعديد من الآيات القرآنية ، والمولى تبارك وتعالى أشار إلى ذلك فى سورة آل عمران ، قَالَ تَعَالَى:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٩٠ ، إذن هذه الآيات توجه النظر إلى التأمل والتفكير فى آيات الله من اختلاف الليل والنهار كسنة من سنن الله المبثوثـة فى الكون ، ولو حاولنا أن ننظر فى مادة عقل ونظر لوجدنا أن القـرآن الكـريم حافل بمثـل هـذه الآيـات : ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، ﴿ لِأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ ، ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ ﴾ ، مما يدل دلالة أكيدة على أن الاحتفـاء بقيمـة العقـل والنظر والتفكر والبحث مقصد أصيل من مقاصد القرآن الكريم ، ولم يأت كصيغة عرضية ، بل يعتبر الإسلام أن جوهر الشخصية الإسلامية يتمثل فى العقل ، بـل من مقاصد الشريعة الغراء المحافظة على العقل. إذن نستنتج من هـذا أن سـمة التفكير ماهية أساسية للمسلم ، وليس نافلة ، وإنما فريـضة شـرعية وضـرورة حضارية من أجل إقامة أمور الدين والدنيا.

ولعل هذا التمهيد الموجز يمهد للحديث عن عوائق وضوابط التفكير الحـر فى التصور الإسلامى .

(٢) عوائق التفكير السليم :

- هناك عوائق وأسباب عديدة تعطل العقل على حد تعبير الأستاذ عباس العقـاد مثل: التقليد والتمسك بالعرف ، والإسلام لا يقبل من المسلم أن يلغـى عقلـه ليجرى على سنة آبائه وأجداده ولا يقبل منه خنوعاً لمن يسخره باسم الدين فى غير ما يرضى العقل والدين ولا يكلفه فى أمر من هذه الأمـور شـططاً [١] ، قَالَ تَعَالَى:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ البقرة: ٢٨٦ .

- إن الإسلام يأبى على المرء أن يحيل أعذاره على آبائه وأجداده ، كما يخاطبنا القـرآن الكـريم ، قَالَ تَعَالَى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ البقرة: ١٧٠ .

- الاستبداد: وهو نظام الحكم المستبد ، ولا شك أن الفكر الاسـتبدادي يـؤدى لا محالة إلى غياب التفكير والعقل ، وهذا يذكرنا بما كتبه الكواكبى عن طبـائع الاستبداد ، ومن ثم فإن آفة الاستبداد لمن أخطر الأمور فى حيـاة الـشعوب والمجتمعات .

(٣) ضوابط التفكير السليم :

- لعل أول ضابط من ضوابط التفكير السليم أن العقل يهتدي بنور الشرع وكمـا أشار إلى ذلك حامد الغزالي فى كتابه (معارج القـدس فـى مـدارج معرفـة النفس)، وغيره من العلماء الذين قالوا العقل الصريح لا يتناقض مـع النقـل الصحيح ، ومن ثم فالمرجع للعقل هو الشرع كضابط وكهادٍ له من أمور الدين والدنيا.

---

(١) عباس العقاد: التفكير فريضة إسلامية ، ص ١٨ .

- البعد عن التقليد ، وأن نعتاد على التفكير المستقل لمن أخطر الأمور في الوصول إلى الحقيقة ، لأن التقليد – كما قلنا – يعطل وظيفة العقل التي هي الهدف الأسمى من خلق الإنسان.

- الالتزام بالقرآن والسنة من المحافظة على ثوابت الدين ، وأن يبحث العقل في دائرته فقط لا يتعداها أما البحث في أمور الغيب أو في أمور تند عن طور العقل ، فهذا ظلم للعقل والدين معاً ، وقد أمرنا الشارع الحكيم بطاعة الله ورسوله ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٦ .

(٤) نماذج من حرية التفكير في الإسلام :

أ- نود أن نشير إلى أن الاجتهاد بأوسع معانيه يعطي لملكة العقل الفرصة الكاملة في التفاعل والتفكير في القضايا والمستجدات المعاصرة ، وإذا كان حكم الاجتهاد بمعنى إسناد حكم الفرع إلى الأصل مع الاشتراك في علة الحكم (فيما يعرف بعلم مسالك العلة) ، فإن العقل هنا لابد أن يعمل من أجل الفهم واستنباط الحكم الشرعي في القضية المعروضة وهذا يدل على أن العقل المسلم يؤدي وظيفته بكل حرية ، عن طريق التجديد في باب الظنيات ، وهذا يفسح المجال أمام حرية التفكير والتجديد والاجتهاد بأوسع معانيه* .

ب- في أمور الدنيا يؤكد الإسلام على الإبداع في مضمار الحضارة والتاريخ ومن ثم يؤكد الإسلام على إعمال العقل في اكتشاف القوانين ، والإبداع في مضمار الحضارة ضرورة دينية وضرورة حضارية ومن ثم فإن التخلف عن ركب الحضارة وتعطيل العقل المسلم لمن أخطر الأمور في حياة الأمم يقول المولى

---

* انظر : سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي : جواهر التفسير (مجلد خاص) تفسير الآية السابعة من سورة آل عمران الناشر مكتبة الاستقامة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤ م ، ص ٣٨ وما بعدها .

تبارك وتعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الذاريات: ٢٠ – ٢١ ، وكما جاء فى الحديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم) [١].

ج- الحرية فى الإسلام ، فى مجال الفنون والآداب ، حرية ملتزمة ، فليس الأمر على إطلاقه ، مثل الفلسفات الغربية والتى تنطلق من نسق غربى يختلف تماماً عن النسق الإسلامى ، وبالتالى فإن الإسلام يرفض الاعتداء على ثوابت العقيدة ، أو على الذات الإلهية باسم الأدب أو الشعر أو الفن. والفن بمعناه الصحيح من هذا الفهم براء. ومن الممكن أن يستوحى الأديب المسلم من المنهاج الإسلامى من الروح والنهج مثلما وجدنا فى قصة يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات والتسليم ، فرغم الحبكة الدرامية العالية ووجود الشخصيات المحورية ، والشخصيات الثانوية ، وكذلك العقدة مثل مشكلة الحقد البشرى وغيره من مشكلات وكذلك التسلسل فى البناء الدرامى للقصة إلا أن القصة لم تجعل لحظة السقوط البشرى التى تتمثل فى موقف امرأة العزيز هى محور القصة – كما هو الحال فى الأدب الغربى – إنما مرت القصة على هذا الحدث مروراً عابراً بأسلوب عالٍ ونظيف ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ يوسف: ٢٤.

ليت الشباب يتعلموا هذا النهج فى أدبياتهم المعاصرة ولا يجترئوا على محارم الله أو على قيم المجتمع باسم حرية التفكير ، فهذا ضد الحرية بكل معانيها!!.

د- الحرية الفكرية التى أثمرت المذاهب الفكرية فى الإسلام مثل المعتزلة والأشاعرة والماتريدية والإباضية ، ورغم غلو بعض المذاهب بشأن العقل مثل المعتزلة ، إلا أنه والحق يقال لولا الحرية الفكرية التى نعم بها هؤلاء العلماء، ما كان بإمكانهم أن يشيدوا مثل هذه المذاهب الفكرية.

---

(١) أخرجه : الحافظ بن كثير فى البداية والنهاية جـ/١١ ، طبعة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ص ٣٣٢ ، الطبرانى فى المعجم الكبير جـ١٠ ، طبعة ٢ ، ١٩٨٦م ، ص ١٩٥ ، الحافظ العقيلى : كتاب الضعفاء جـ/٢ ، ص ٨٥.

(فيلسوف فرنسى معروف) ، أبو الوجودية الحديثة ، : " إن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ذاته إلا بإطلاق العنان لرغباته وشهواته، بحيث يفعل ما يشاء ويتـــرك مـــا يريد ولا يبالى بالعرف أو الدين "[1] ، يقول فى موضع آخر : " إن من لا يـــستمع إلينا ولا يقبل حرية إطلاق النفس من قيودها إنما هو جبان "[2] ، ويقول أيـــضاً : " الآخرون هم الجحيم ".

هذه هى الوجودية والتى تعبر عن فكرة العبث واللامعقـــول ، مـــا معنـــى الحرية إذا كان القصد منها إطلاق العنان لرغبات النفس وشهواتها، ومـــا معنـــى الدعوة القائلة إن الحرية إطلاق النفس من قيودها !، إن قيمة الحريـــة العظيمـــة عندما تكون منضبطة ويحكمها الشرع والعقل. أما هذه الترهات فهى أبعد ما تكون عن المنطق السديد وهى تعبر عن فكرة (الأزمة) فى نسق الفكر الغربـــى ، وإذا تأملنا فى قول سارتر(الآخرون هم الجحيم) نجد هذا الفهم الخاطئ للآخر ، وأين هذا الكلام من دعوة الإسلام العظيمة العالمية ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ الحجرات: ١٣. أى أن الأصل هو التعاون والتعارف وليس (الآخرون هم الجحيم) كما يدعى سارتر ومن على شاكلته من الوجوديين أصحاب حريـــة التفكيـــر فـــى الفلسفة الوجودية المعاصرة!.

(٥) الفكر الإسلامى لم يعرف الحجر على الفكر :

لم نلحظ الحجر على الفكر فى أى مرحلة من مراحل تاريخنا الإســـلامى ، بالمقارنة لما حدث للفلاسفة اليونان منذ القدم ، فسقراط حُكـــم عليـــه بـــالموت ، وأفلاطون بيع فى سوق العبيد، وأرسطو نجا بنفسه من أثينا خوفـــاً مـــن عاقبـــة

---

(١) د.عبد الحمن عميرة: المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها ، دار الجيل ، ص ٢١٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

سقراط بعد أن رماه كاهن من كهانها بالإلحاد[1]، ونقارن بين هذه الأحوال التى عرضت لأكبر فلاسفة اليونان وبين أحوال الفلاسفة المسلمين من المشتغلين بالفلسفة اليونانية وهى أجنبية فى البلاد الإسلامية فلا نرى أحداً أُصيب بمثل هذا المصاب من جراء الفلسفة أو الأفكار الفلسفية ولم يكن من خروج بالفلسفة أو حجر على الأفكار فأشهر الفلاسفة المسلمين فى المشرق ابن سينا الملقب بالشيخ الرئيس دخل السجن لأنه كان عند أمير حمدان فبرم بالمقام عنده وأراد أن يلحق بأمير أصفهان علاء الدولة ابن كاكوية فسجنه أمير حمدان ليبقيه إلى جواره ولم يسجنه عقوبة له على رأى من آرائه، وابن رشد أشهر الفلاسفة المسلمين أصابته النكبة لأنه لقب الخليفة المنصور فى بعض كتبه بملك البربر وكان يصادف أخاه (أبا يحيى) ويرفع الكلفة بينه وبين الخليفة فيناديه يا أخى وهو فى مجلسه الخاص بين وزرائه وكبرائه ، ويحتاج المؤرخ فى كل مصادره الفكرية أو الدينية – كما قلنا فى تاريخ الفيلسوف – إلى البحث عن سببين أحدهما معلن والآخر مضمر، فقليلاً ما كان السبب الظاهر هو سبب النكبة الصحيح، وكثيراً ما كان للنكبة غير سببها الظاهر سبب آخر يدور على بواعث شخصية أو سياسية تهم ذوى السلطان[2].

واشتغل بالفلسفة اليونانية غير ابن سينا وابن رشد أعلام من هذه الطبقة من طراز الكندى والفارابى والرازى، كما اشتغل بها أناس دون هذه الطبقة فى الشهرة والمكانة فلم يصب أحدهم بسوء من جراء تفكيره ولم يصدهم أحد عن البحث والكتابة إلا أن تستدرجهم حبالة من حبائل السياسة، فينالهم منها ما ينال سائر ضحاياها ولو لم يكن أسهم فى مذاهب الفلسفة أو الدين[3].

هذا بخلاف ما حدث فى محاكم التفتيش فى أوربا فى العصر الوسيط من الصدام بين رجال الدين فى الكنيسة والعلماء ، وحدث ما حدث لجاليليو إثر

---

(١) عباس العقاد : المرجع السابق ص ٤٦ .

(١) المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٧ .

... العلمية من تهم وإعدام لكل من وجه بآراء تصطدم مع ما يعتقده رجال الدين فى الكنيسة ولم يحدث هذا فى الحضارة الإسلامية، أن كان لرجال الدين سلطة بابوية أو هيمنة على حرية الفكر، وليس كما يدعى البعض زوراً وبهتاناً أن الإسلام يحجر على الفكر أو أن نظرته دجماطيقية متحجرة!!.

(٦) أثر حرية التفكير فى ظهور العلماء فى الحضارة الإسلامية :

لقد أثرت حرية التفكير تأثيراً كبيراً فى الحضارة الإسلامية، وكان العلماء على مستوى الأمة يتمتعون بالحصانة والحرية ولا يتأثرون بالخلافات السياسية أو الطائفية، ويعتبر الشعور بالأمان والاستقرار الذى يحسه العالم فى مزاولة عمله من أهم مظاهر الحركة العلمية فى عصر الإسلام الذهبى، فعندما انتقل الحسن بن الهيثم من موطنه فى البصرة تحت حكم الخليفة العباسى إلى بلاد منافسه الحاكم بأمر الله الفاطمى كان واثقاً من أنه سيلقى الاحترام والتبجيل وذلك بالرغم من وجود الخلافات السياسية والمذهبية والتى لم تكن حدتها فى ذلك الوقت بأخف مما هى عليه اليوم. كما كان العلماء المسيحيون واليهود والصابئة وغيرهم يحظون أيضاً باحترام الحكام والناس أينما حلوا.

وكان طلاب العلم يجوبون حواضر العالم العربى والإسلامى التماساً للمعرفة، فإذا نزلوا بلداً وجدوا مأوى وطعاماً وعلماً يتلقونه بالمجان على أيدى أشهر العلماء والحكماء. وأصبح الجامع الأزهر بالقاهرة، والجامع المنصور فى بغداد والجامع الأموى فى دمشق والجامع الكبير بصنعاء وجامع القيروان بتونس وجامع القرويين بالمغرب وجامع قرطبة بالأندلس بمثابة جامعات يحج إليها طلاب العلم من كل فج عميق[١].

---

(١) د.أحمد فؤاد باشا: التراث العلمى فى الحضارة الإسلامية، ص ٣٥ .

نخلص من الدراسة إلى النتائج التالية:

١. أن الحرية هى الحياة، ولا حياة بلا حرية، وأن الحرية بـضوابطها الـشرعية تؤدى إلى نهضة الأمة ورقى الحضارة.

٢. لابد أن نفرق بين مفهوم الحرية فى التفكير الإسلامى والحرية فـى التفكيـر الغربى، فكل حضارة لها نسقها الفكرى الذى تنتمى إليه.

٣. أن التطبيق الحى لحرية التفكير فى عصر الإسلام الزاهر أدى إلـى تطـور العلوم والفنون والآداب فى حضارتنا العربية الإسلامية، وحرىّ بنا أن نـسير على نفس الدرب مرة ثانية حتى نستعيد مجدنا المفقود فـى دنيـا الحـضارة المعاصرة.

٤. أن الإسلام قد أعلى من قيمة الحرية، بل جعلها من أجل القيم، لأن الحرية هى جوهر الحياة، وليس أدل على هذا من جعل الإسلام للعقل هذه المكانـة، بـل المحافظة عليه أحد المقاصد الأساسية للشريعة الإسلامية.

الفصل السادس

"حقوق الإنسان والتنمية الشاملة في ظل الإسلام"

- حق الحياة
- حق حرية الاعتقاد
- حق الحياة فى أمن واطمئنان
- حق التعليم
- الإنسان ودوره الفاعل فى التربية
- تنمية القدرات العقلية وعلاقته بالتربية

حقوق الإنسان والتنمية الشاملة في ظل الإسلام

يرتبط موضوع التنمية الشاملة بحقوق الإنسان ارتباطاً وثيقاً، فحقوق الإنسان فى الإسلام تعنى المحافظة على كيانه، والمحافظة على حياته، وعلى سعادته، ويربط الإسلام بين العبادة بمعناها الشامل وحقوق الإنسان. كانت هذه مقدمة ضرورية للولوج إلى الموضوع الذى نود معالجته فى هذا الطرح.

فلو نظرنا إلى المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، وهى حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ المال، وحفظ العرض، نجد أنها تصب فى مجال حقوق الإنسان. وسوف أشير إلى عظمة المنهج الإسلامى فى التأكيد على حقوق الإنسان.

أ. حق الحياة :

الحياة محض هبة وفضل من الله، وبالتالى لا يحق لأحد أن يعتدي عليها، ولهذا أكد الإسلام على حرمة قتل النفس يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ الإسراء: ٣٣، ويشير القرآن الكريم إلى أنه اعتبر قتل نفس واحدة بمثابة قتل للبشرية جمعاء قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ المائدة: ٣٢.

ب. حق الإنسان فى حرية الاعتقاد :

أكد الإسلام على حرية الاعتقاد، وأن ممارسة الدين حق مكفول لكل إنسان قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ البقرة: ٢٥٦، وهذا المبدأ العظيم، هو الذى شجع الإنسان فى ظل الحضارة العربية الزاهرة فى العصور الوسطى أن يبدع وينتج وينمى المجتمع الذى يعيش فيه. ومن ثم انصهر فى ظل هذه الحضارة كل الناس من شتى الملل والنحل، من اليهود والمسيحيين والمسلمين وساهموا جميعاً فى بناء صرح هذه الحضارة، واشتركوا جميعاً فى التنمية الشاملة لأن هذه الحضارة

أرست المبادئ العظيمة وأعطت كل ذى حق حقه من منطلق قول المولى تبارك وتعالى، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ الشعراء: ١٨٣.

جـ. حق الحياة فى أمن واطمئنان :

يشير الرسول ﷺ فى خطبة الوداع إلى حق الإنسان فى أن يعيش فى أمن واطمئنان ، يقول ﷺ " إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا " رواه مسلم عن جابر ، وفى حديث آخر : " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " رواه مسلم عن أبى هريرة . لقد أقر الإسلام حقوق الإنسان فى كلمات قصار منذ أربعة عشر قرناً من الزمان وقبل أن تُعرف المدينة المعاصرة، ومنظمات حقوق الإنسان التى ما زالت تنادى بالمحافظة على حقوقه، ورغم المواثيق الدولية فى هذا الصدد – إلا أن حقوق الإنسان ما زالت مجحوفة فى بقاع كثيرة من أرجاء المعمورة لظلم الإنسان لأخيه الإنسان والعلاج الناجح يتمثل فى تطبيق مبادئ الإسلام العظيمة.

إن الحقوق فى الإسلام يقابلها الواجبات من منطلق قول المولى تبارك وتعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ القصص: ٧٧.

د. حق الإنسان فى التعليم :

حرص الإسلام على التأكيد على حق الإنسان الطبيعى فى التعلم منذ هبوط الرسالة على قلب النبى ﷺ ، فأول ما نزل من الوحى : قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ العلق: ١.. القراءة فى كل مجال من مجالات حياتنا أمر يدعو إليه الإسلام منذ البدايات الأولى للوحى، القراءة المتدبرة فى كتاب الله المسطور لنتلمس منه العبرة والهداية، والقراءة فى كتاب الله المنظور، وهو الكون بكل ما فيه من سماوات وأراضين، بكل ما فيه من أسرار فيجب علينا أن نكتشف القوانين التى تحكم نظام الكون من أجل تسخيره لخدمة ديننا ودنيانا. فلا جرم أن الإسلام

يؤكد على هذه الحقائق منذ البدايات الأولى للوحى، بل ذهب الرسول ﷺ إلى أبعد من ذلك فقال: " طلب العلم فريضة على كل مسلم " فطلب العلم ليس نافلة أو أمراً ترفياً إنما من المهام الرئيسية للإنسان لتحقيق الدور المنوط به من الاضطلاع بمهام الخلافة فى الأرض.

إذن الإسلام جاء ليربط بين حقوق الإنسان والتنمية فى كل جانب من جوانب الحياة ولهذا كان الخطاب القرآنى موجهاً إلى الإنسان، الإنسان العاقل المفكر الذى كُلف بحمل الأمانة وهذا ما سأشير إليه.

هـ. الإنسان ودوره الفاعل فى التربية :

دعا الإسلام إلى بناء العقل المسلم، فلو نظرنا إلى الخطاب القرآنى لوجدناه موجهاً إلى الإنسان، يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ الانفطار: ٦، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ الانشقاق: ٦، ومن هنا فإن الهدف من الرسالة المحمدية هو تنمية الإنسان من كافة جوانبه، فالمذهب الإلهى يهتم بالإنسان ككل، بخلاف المذاهب الوضعية مثل العقد الاجتماعى عند چون لوك وچان چاك روسو اللذين تصورا أن الإنسان عاش بلا جماعة أو تنظيم مجتمع، فالإنسان كائن اجتماعى بطبعه!! ومن ثم فالإسلام نظر إلى الإنسان فى كيانه المتكامل كروح وجسد، بخلاف النظرة الغربية التى تنظر إلى الإنسان نظرة مادية وحسب وأن إشباع الحاجات المادية هو ملاذ إنسان العصر من مأكل ومشرب ومتاع جنسى وغيره من أنواع المتعة. فى حين أن المنهج الإلهي يراعى الإنسان فى كيانه المتكامل كروح وجسد. فغذاء الروح لا يقل أهمية عن غذاء البدن، ومن ثم فإن الإسلام يؤكد على بناء الشخصية المتكاملة فى كافة جوانبها، حتى تستطيع أن تنهض بالأمة وترتقى بأشواقها كما أراد رب العزة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ آل عمران: ١١٠. إن خير أمة تتكون من المواطن الصالح الذى يحب الخير لنفسه وللمجتمع الذى يعيش فيه ، فكما يقال " فاقد الشئ لا يعطيه " ، و

" من لا يملك النصاب فكيف يزكى " ، ولذا .. نقول إن التنمية الحقيقية تبدأ بالإنسان الفرد وتنميته على كافة المستويات الثقافية والخلقية والتربوية وهذا ما أشار إليه العديد من المصلحين والمربين فى فكرنا الحديث أمثال الشيخ محمد عبده وغيره من المصلحين.

و. تنمية القدرات العقلية وعلاقته بالتنمية :

أشار القرآن العظيم فى مواضع عديدة إلى أهمية العقل فى التنمية، وعندما يأتى ذكر العقل، يكون فى مقام التعظيم والتنبيه، وكما يشير الأستاذ عباس العقاد فى كتابه " التفكير فريضة إسلامية " أن الإشارة عن العقل فى القرآن جاءت جازمة باللفظ والدلالة. ولهذا لم يذكر القرآن العقل بمعنى واحد وإنما بكل المعانى التى يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة من العقل المدرك والعقل الوازع، إلى أعلى خصائص العقل " الرشد ".

ولو نظرنا فى سورة آل عمران لوجدنا دعوة عظيمة إلى التفكير والتأمل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ آل عمران: ١٩١.

ولعل هذا القول يذكرنى بما ذهب إليه العالم بلوم فى تصنيفه المشهور للقدرات العقلية فى الذهن الإنسانى من الفهم، والتذكر، والاستنباط، والقدرة على المقارنة إلخ... وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ولا مانع من أن نستفيد من الدراسات والبحوث العلمية فى هذا الصدد، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها. ما نود الإشارة إليه أن القرآن الكريم جاء لكى ينمى قدرات العقل الإنسانى من أجل التنمية الشاملة فى كل مجال من مجالات حياته، ورحم الله الإمام الشافعى واضع علم الأصول فى الفقه، الذى أقام صرح هذا العلم على أساس عقلى متين فالفقه وأصول الفقه لا يمكن فهمهما بدون العقل الراجح والنظر السديد، وإذا كان فقهاؤنا الأوائل قد أبدعوا فى مضمار الفقه وأصوله، كما أبدع علماؤنا فى مضمار الدين والدنيا كابن رشد وابن سينا

والخوارزمى وجابر بن حيان وابن الهيثم وغيرهم وغيرهم مما لا يتسع المجـــال لذكره، فلماذا لا نؤسس العقل المسلم من جديد على قيم الإبداع والنماء والعطـــاء ولنعمل على استعادة الثقة بأنفسنا وذواتنا من جديد، فالثقة فى الله أولاً وفى النفس ثانياً لمن أول خطوات النجاح.

الفصل الرابع

"الأمة الإسلامية والنهضة العلمية"

- النهضة العلمية أساس الرقى والنجاح
- الأخذ بسنن النجاح سنة ربانية
- عوامل النهضة فى واقعنا المعاصر

"انفتاح الحضارة الإسلامية على الشعوب"

- العلم فى الحضارة الإسلامية
- بدء البحث بالجهل أو التجاهل فى تراث العرب
- الملاحظة عند علماء العرب
- التجربة العلمية فى بحوث العرب
- تعقيب

الأمة الإسلامية والنهضة العلمية

(أ) النهضة العلمية أساس الرقى والنجاح :

ليس ثمة شك أن النهضة العلمية هي أساس التقدم والرقي للأمم والمجتمعات، والأمة الإسلامية التى اختصها الله بخير أمة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ آل عمران: ١١٠، عليها مسئولية كبيرة من الأخذ بأسباب النهضة والتقدم فى عالم العلم والحضارة، ولعل الأسئلة التى تطرح نفسها على العقل الإسلامى المعاصر، ما أسباب التخلف العلمى فى عالمنا العربي والإسلامى؟ ، وما مقومات الوثبة الحضارية للحاق بركب التقدم العلمى المذهل؟ ، خاصة أن مساحة الزمن باتت تُختزل شيئاً فشيئاً، فيقدر العلماء ما أنتجته البشرية خلال الثلاث عقود الماضية بقرابة ما أنتجته طوال قرن من الزمان، لقد ظهرت ثورات علمية متوالية، ثورة المعلوماتية وتكنولوجيا المعلومات، وثورة الاتصالات، وأضحى احتكار المعرفة من مقومات القوة فى دنيا العلم والحضارة، هذا فى الوقت الذى تقف فيه الأمة الإسلامية متفرجة على المشهد الحضارى لا فاعلة فيه، بعبارة أخرى نحن مستهلكون للتكنولوجيا لا منتجين لها، وهذا الأمر ينذر بعواقب وخيمة لا تبشر برقى وتقدم إذا ظللنا هكذا دون خطط ونهج علمي مدروس فالنتيجة ليست فى صالحنا، لا أقول هذا الكلام من باب التشاؤم أو النظرة التراجيدية المأساوية، وإنما أقوله من باب نقد الذات ومكاشفة النفس بالحقيقة، فمن مصائب الدهر أن يعيش الإنسان أسير أوهامه ويظن أنه يسير على جادة الطريق!! من هنا نقول إننا كأمة زكاها رب العالمين أنها خير الأمم، ينبغي أن نفتش فى مشكلاتنا الحقيقية حتى يصحو العقل المسلم من وهدته، ولكى نستأنف مسيرتنا الحضارية فى عالم لم يعد يأبه بالضعفاء والمهزومين، فلو نظرنا إلى شتى الأمم شرقاً وغرباً لوجدنا أن البون شاسع بيننا وبينهم، فالهند بدأت نهضتها منذ نصف قرن تقريباً وبدأت معها بعض الدول العربية والإسلامية فماذا كانت النتيجة، الهند الآن تساهم فى الصناعات الثقيلة مثل الطائرات والسيارات وعالم

الكمبيوتر فضلاً عن القوة النووية!، كذا الحال فى اليابان بعد ضربها في ناجازاكي بالقنبلة الذرية، أصبحت اليابان في مصاف الدول المتقدمة علمياً.

(٢) الأخذ بسنن النجاح سنة ربانية :

من حكمة الله فى الكون، أن الله سبحانه وتعالى أودع فى هذا الوجود، سننه وقوانينه، ومن يأخذ بأسباب التقدم ويعمل بسنن الله فى كونه، يمكّن الله له فى الأرض من اكتشاف القوانين والمعرفة العلمية فى كافة مجالاتها، فليس العيب فى ديننا، وإنما العيب فى أننا لم ننفذ دعوة القرآن العظيمة فى اكتشاف الحقائق والقوانين، لقد دعانا القرآن إلى اكتشاف حقائق الأرض والسماء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ ق: ٦، إن النظر المطلوب هنا ليس هو النظر الساهي الأبله، وإنما هو التأمل الباحث عن الحقيقة المكتشف للقانون، ولهذا فنحن محتاجون إلى تربية جديدة تنطلق من رؤية الإسلام الحضارية، تربية جديدة توقظ العقل المسلم من سباته العميق، ومن مخلفات وموروثات القرون، ولعل الخلل فى المفاهيم هو الذى أدى إلى هذه النتائج الوخيمة فى دنيا الواقع، فلو نظرنا إلى مفهوم " العلم " مثلاً لوجدنا أن البعض يختلط عليه الأمر، فالعلم بشطريه الدينى والدنيوى مُطالب به المسلم، صحيح أن معرفة ما تصح به العبادة فرض أو واجب على كل مسلم، وأن معرفة العلوم الكونية فرض كفاية، أو بعبارة أخرى مسؤولية تضامنية للأمة المسلمة جميعها لدرجة أن بعض العلماء يرى أن فرض الكفاية إذا قصرت فى إقامته الأمة يرقى إلى مرتبة الواجب، والسؤال : هل نحن فى مصاف الدول المتقدمة من الناحية العليمة؟!.

(٣) عوامل النهضة فى واقعنا المعاصر:

أ- إن المقدمات الصحيحة تؤدى إلى نتائج صحيحة، وأمة اقرأ أمة المليار ونصف المليار مدعوة لتصحيح هذه المفاهيم المغلوطة والتى عشعشت داخل عقولنا وبنائنا النفسى، فالأمور ينبغى أن تُقدر بقدرها، والحضارة أن

نبث مثل هذه المفاهيم عبر مناهجنا التربوية والعلمية وإلا ضاع منا أول معلم من معالم الطريق. إن علماء الإسلام عبر تاريخنا الحضارى الإسلامى تنبهوا إلى خطورة هذه الحقيقة، تنبهوا إلى الاحتفاء بعلوم الدين والدنيا، فعلى سبيل المثال ابن رشد الفيلسوف الذى اهتم بعلوم الدين وله موسوعته الفقهية المعروفة " بداية المجتهد ونهاية المقتصد " وكذا كان بارعاً فى علوم الطب وله كتابه " الكليات " فى الطب ، كان يمثل العقلية الموسوعية التى توازن بين علوم الدين والدنيا ، ولهذا أبدع علماء المسلمين فى كافة ميادين العلم، وتاريخ العلم خير شاهد على دور العقل الإسلامى فى النهضة الحضارية، بعبارة أخرى كانوا منتجين للعلم والمعرفة لا مستهلكين لها.

ب- إن رعاية الموهوبين يتطلب منا إستراتيجية جديدة للتعامل معهم، فالثروة البشرية هى ثروة الأمة الحقيقية، ولابد من إنشاء الصناديق الخيرية لرعاية الموهوبين فى عالمنا الإسلامى وتعهدهم بالرعاية حتى يقدموا لأوطانهم عصارة جهدهم، لقد لاحظت منذ سنوات خلت أثناء احتفال عالمى لرعاية الموهوبين كان على رأس الفريق العالم المصرى أحمد زويل وعلى حد تصريحه آنذاك لم يجد أحداً من المسلمين، إن أمة اقرأ خليقة بأن ترى شبابها من العلماء النابهين، وعندما نفكر فى هذا الأمر بلغة العقل والمنهج فسوف نسد المنافذ على هجرة العقول إلى خارج أوطاننا، إن الغرب يقدم الإغراءات والمناخ المناسب لاجتذاب العقول المهاجرة، وهو يعود بطبيعة الحال بالخسارة الفادحة على أمتنا العربية والإسلامية، تُقدر هذه الخسارة بالمليارات، فى الوقت الذى تابعنا فيه الهند وهى ترسم خططها لاجتذاب العقول المهاجرة.

ج- ميزانيات البحث العلمى ما زالت متواضعة فى عالمنا العربى والإسلامى إذا ما قورنت بالعالم الغربى، فميزانية البحث العلمى فى معظم بلدان العالم

الإسلامى ٠,٣%، فى حين تتجاوز ذلك بكثير فتصل إلى ٢ أو ٤% من إجمالى الدخل القومى. فهل مثل هذه الميزانيات تؤدى إلى وثبة علمية.

د- إننا ما زلنا نفكر بعقلية فردية، متقوقعة لا بعقلية جماعية أو العقل الجمعى بلغة العلم، فكم من البحوث العلمية المكررة هنا وهناك، وكم من البحوث حبيسة الأدراج أو من أجل الترقية فقط فى أفضل الأحوال!! نحن محتاجون إلى التنسيق فيما بيننا وبين الجامعات العربية والإسلامية فى كافة المجالات العلمية، التنسيق على مستوى النظر والعمل، وهذا ليس بالأمر الصعب فى ظل ثورة الاتصالات المعاصرة.

هـ- هناك علاقة جدلية بين إبداع الإنسان والمناخ الذى يعيش فى ظله، أو بمعنى آخر هناك علاقة جدلية بين حرية الإنسان وإبداعه الفكرى والعلمى وحرى بأمتنا التى أثبتت جدارتها على مر التاريخ أن تستعيد دورها الحضارى فى ظل الطفرة العلمية الحضارية التى نلحظها، ونحن واثقون فى الله سبحانه وتعالى أن الغد سيكون أفضل من اليوم - بإذن الله - وأن الله سيمكن لهذه الأمة فى عالم الدين والدنيا شريطة أن نأخذ بمنهاج ديننا وسنة نبينا محمد ﷺ .

انفتاح الحضارة الإسلامية على الشعوب الأخرى

قلنا إن الحضارة الإسلامية، لها مقوماتها، ولها أيضاً خصوصيتها، في أخلاقها – كما قدمنا – وتصوراتها.

ورغم هذه الخصوصية، إلا أنها لم تكن حضارة مغلقة، أو حضارة مضطربة على ذاتها.

وشهادة التاريخ، تشير وتؤكد أن حضاراتنا العربية والإسلامية قد تفاعلت مع الأمم المجاورة، ومع الحضارات الأخرى فيما يمكن أن نطلق عليه " مشترك إنسانى عام " وليس ما هو " خصوصية حضارية " والبون شاسع بينهما.

ونود أن نشير إلى أن حضارتنا العربية الإسلامية قد تفاعلت مع الحضارات الأخرى، وتأثرت فى بعض جوانبها، ورفضت أيضاً البعض الآخر، ولابد أن نميز بين ما " قُبِلْ " وما " رُفِضْ " .

لقد فُتحت فارس على عهد الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب .. وكذلك فُتحت الأودية الزراعية للأنهار الكبرى فى الدولة الإسلامية: النيل، دجلة، الفرات .. ولم يتردد عمر بن الخطاب فى تبنى النظام الفارسى فى ضريبته الزراعية، والذى كان يسمى " وضائع " كسرى وظل سائداً ومعمولاً به حتى عُدل فى ظل الدولة العباسية فهنا تم استلهام تجربة حضارية وخبرة قومية فى طرق تقدير الضريبة على الأرض الزراعية.

لكن العرب كانوا حذرين كل الحذر، وشديدي الرفض والمقاومة لكل ما هو " خصوصية حضارية " فارسية تتعارض مع معايير الإسلام وجوهر معتقداته وخصائصه الحضارية المتميزة .. لقد رفضت الخلافة الإسلامية – وهى نمط متميز فى نظام الحكم – ما تميزت به مواريث الحضارة الفارسية فى نظام الحكم

وفلسفته السياسية التى كانت ترى رأس الدولة – كسرى – ابناً للإله " أهورا – مزدا " يحكم باسمه ونيابة عنه زاعماً أن لقانونه وتنفيذه قداسة الإله والدين.

ومع الحضارة الهندية، فالبيرونى (٣٦٢-٤٤٠هـ) (٩٧٣- ١٠٤٨م) الذى نهض بمهام وأعباء " البعثة العلمية " عندما عاش بالهند أربعين عاماً عقب الفتح الغزنوى لبعض أقاليمها والذى درس تاريخ الهند وتراثها وحضارتها دراسة العبقرى المتفرد. البيرونى هذا – يعلمنا – دون أن يعرض مباشرة لقضيتنا هذه كيف ميز أسلافنا فى تراث الهند مثلاً بين " الحساب الهندى " و " الفلك " فأخذوهما – وكذلك صنعوا مع غيرهما من علوم الطب والأعشاب الدوائية.

انظر كيف ميزوا بين هذه العلوم الطبيعية والعملية والتجريبية التى أخذوها، وطوروها، وبين ديانات الهند ومذاهبها وفلسفاتها التى رفضوها، لتعارضها مع التوحيد الإسلامى ومع إلهية المصدر الدينى فى الإسلام، كديانة سماوية نزل بها الوحى على الرسول ﷺ .

ونود أن نشير أيضاً إلى تأثر الحضارة الإسلامية بالفلسفة الإغريقية، وبفكر اليونان، صحيح أننا لا ننكر أن المسلمين، قد وقفوا على الفلسفة اليونانية وترجموا العديد من هذه المؤلفات، ولكن ما نحب أن نؤكد عليه أن المسلمين، لم يكونوا مجرد مرددين لكل ما يقال فى الحضارة اليونانية، إنما استفاد هؤلاء العزب ومن ينتمون إلى حضارتنا الإسلامية من مختلف الملل والنحل، وأضافوا من تصوراتهم الإسلامية، لتصحيح هذا الفكر. وهذا يوضح أيضاً الفرق بين خصوصيتنا الحضارية والآخر، وأن الحضارة الإسلامية لم تنصهر فى الحضارات الأخرى، أو الحضارات التى تفاعلت معها، بالعكس تماماً، وسوف نضرب بعض الأمثلة لنوضح للقارئ هذه الحقيقة.

فالشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٠-٤٢٨هـ ، ٩٨٠-١٠٣٧م) كان أول من أفرد لعرض وشرح الفلسفة المشائية اليونانية موسوعته الضخمة (الشفاء) .. ولقد شهد هو نفسه أنه قد عرض هذه الفلسفة وقدمها وشرحها، لا لأنها الفلسفة

الحقة، وإنما لمكانتها عند المشائيين الذين لا يستعينون بغيرها ولا يألفون سواها .. وأنه لذلك، وحتى لا يظن المحققون لتبنيه قد وضع فى ثنايا عرضه لكتابى " الشفاء " و " اللواحق " إضافات لو فُطن إليها لرأوا فيها الفلسفة الحقيقية للشرقيين، المتميزة عن الفلسفة الغربية (اليونان) وأنه لم يكتف بهذه الإضافات التى تكفى المدققين ذوى الفطنة، فى إدراك هذه الحقيقة، حقيقة تميز أمتنا فى فلسفتها عن اليونان، وإنما عمد أيضاً إلى إفراد فلسفتنا بكتاب خاص هو كتاب " الحكمة الشرقية " أو " الفلسفة الشرقية " بسط فيه صراحة معارضة فلسفتنا للفلسفة اليونانية وعلى الأخص فى الإلهيات.

وأيضاً ابن رشد (٥٢٠هـ-٥٩٥هـ ، ١١٢٦م-١١٩٨م). فإن إبداعه كله " وثيقة " شاهدة فى هذا الموضوع.

لقد أنجز ابن رشد أضخم مشروع عربى لتقديم فلسفة اليونان إلى العقل العربى والمسلم. وقدم لأعمال أرسطو الشروح الكبرى والمتوسطة والموجزة وصحح الأخطاء، وضبط المصطلحات، وحدد المفاهيم وحرر المقولات.. ورعت الدولة مشروعه هذا، كما ترعى الأمم والدولة العريقة – فى زماننا – المشاريع الثقافية والعلمية الكبرى التى تتيح لأبنائها الإطلاع على الحضارات الأخرى والتفاعل معها.

ولهذا الإنجاز الرشدى العملاق فى شرح حكيم اليونان أرسطو، استحق ابن رشد على النطاق العالمى لقب " الشارح الأكبر "، لكن ابن رشد لم يقف عند حدود الشارح لأرسطو ولا كان المتبنى لكامل مقولات أرسطو، ففى شروحه ذاتها إضافات وانتقادات لم يغفلها، وفى هذه الإضافات الرشدية تتجلى خصوصيات الفلسفة الإسلامية، عندما يبدعها ابن رشد المسلم المتكلم، القاضى، والفقيه.

ففى مسائل كثيرة وجوهرية تبرز خصوصيتنا الفلسفية، المتميزة عن الفلسفة الأرسطية وفى مقدمة هذه المسائل :

أ- تصور ابن رشد للذات الإلهية وهو إبداع رشدى - إسلامى لا علاقة له بالفلسفة اليونانية.

ب- تصوره المنهجى للتوفيق بين الحكمة والشريعة وهو إبداع إسلامى غير وارد فى الإطار اليونانى.

ج- تصوره لقضية الحرية الإنسانية .. والجبر والاختيار ومكانة الإنسان فى الكون.

وهذه شهادة فيلسوف أخرى نعرضها وهى شهادة إبداع، على أن الانفتاح على الحضارات الأخرى، وفقه مقولاتها، والتبحر فى بحارها والعناية بعلومها وفنونها، كأهلها أو أكثر، لا يعنى إغفال الفروق بين ما هو خصوصية حضارية، وما هو مشترك إنسانى عام لأن الوعى بهذه الفروق هو سبيل الأمن وطوق النجاة من الوقوع فى أسر الغزو الفكرى، الذى سقط فى أغلاله دعاة " الهيلينية " قديماً، وأنصار " التغريب " فى عصرنا الحديث .. تلك هى حقيقة صفحات تفاعلنا الحضارى مع مواريث الفرس والهند واليونان.

- العلم فى الحضارة الإسلامية :

كان توفيقاً من الله تعالى أن يجمع الإسلام بين الدعوة إلى القيم الأخلاقية العليا والمبادئ الإنسانية السامية، فى الوقت الذى بُنى فيه الإيمان الدينى على النظر العقلى، ودعا إلى احترام المعرفة وتكريمها إلى حد أن أول آية نزلت من القرآن كانت سورة العلق، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ (٣) ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ العلق: ١ - ٥.

والإسلام يعلى من شأن الحواس والعقل أداة المعرفة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ (٤٦) ﴾ الحج: ٤٦.

ويعلى القرآن من شأن العلم والحكمة، قَالَ تَعَالَى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ البقرة: ٢٦٩.

وقد جعل الإسلام العقل حكماً فى كل شئ فى الدين وفى الإيمان نفسه، يقول تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ البقرة: ١٧١. ويفسر الشيخ محمد عبده هذه الآية بقوله: " إن الآية صريحة فى أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين، وأن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به، فمن رُبّى على التسليم بغير عقل، والعمل ولو صالحاً بغير فقه، فهو غير مؤمن، إذ ليس القصد من الإيمان أن يُذّلل الإنسان للخير، كما يُذلل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ويترك الشر لأنه يعلم سوء عاقبته ودرجة مضرته.

- بدء البحث بالجهل أو التجاهل فى تراث العرب :

سبق العرب إلى ما فطن إليه الغربيون بعد مئات السنين، وأوجبوا على الباحث منذ بداية بحثه أن يطرح عقله من كل ما يحتويه من أفكار حول موضوعه، خشية أن تتلف بحثه وتوجهه إلى غير ما يقتضيه منهجه، وتوسلوا إلى هذا بالشك. وقد عرفوا ما كان منه حقيقياً مذهبياً فنبذوه.

يقول إبراهيم النظام (ت ٢٢١هـ-٨٤٠م): " لم يكن يقين قط حتى صار فيه شك، لم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد حتى يكون بينهما حال شك ". وبهذا تنتفى السلطة فى كل صورها مصدراً للحقيقة، لأن الحقائق لا عليها سلطة علمية – كمشاهير المفكرين – ولا دينية – كما هى الحال فى الكنيسة فى العصور الوسطى – ولا اجتماعية – تتمثل فى العرف الاجتماعى وتقاليده – ولا سياسية –

يفرضها حاكم مستبد – لان كل يقين فى المعرفة مسبوق بشك يستهدف التمحيص ويمهد لليقين.

بل إن الشك المنهجى الإرادى الذى يُعزى إلى " ديكارت " قد فطن إليه "الغزالى" قبله بخمسة قرون ونيف. بدأ "ديكارت" بالشك فى الحواس أداة للمعرفة اليقينية، وكذلك فعل الغزالى، فقال فى " المنقذ من الضلال " : "... وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً فى مقدار الدينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار .. أما تراك تعتقد فى النوم أموراً وتتخيل أحوالاً وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً، ولا تشك فى تلك الحالة فيها، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل..؟ وشك ديكارت – شكاً مفتعلاً – فى العقل أداة المعرفة، وكذلك فعل الغزالى، فالقوانين العقلية التى لا يرقى إليها الشك كمبدأ عدم التناقض وهو القول بأن الشئ لا يمكن أن يكون وألا يكون فى آن واحد – غير مستحيل أن يحدث إذ أن الكائن يمكن أن ينمو نمواً يغير حالته تغيراً متصلاً، فهو فى كل آن كائن وغير كائن .. وإذا كان "ديكارت" قد انتهى من شكه إلى يقين الفكر، فرد للعقل سلطانه، وكان الشك عنده خطوة موصلة إلى اليقين، فإن الغزالى قد انتهى من شكه إلى يقين الحدس أو الكشف أو العيان الذى يقابل البرهان العقلى، فكان شكه بدوره أداة موصلة إلى اليقين، وإن اختلف اليقين فى الحالين.

- الملاحظة عند علماء العرب :

هذا أهم ركن فى منهج البحث العلمى التقليدى. لكن استخدام العرب للملاحظة فى بحوثهم الشك عند كثير من الباحثين. ولهذا وجب أن نقف عنده. ولنمهد لذلك بكلمة عن موقفهم من منهج أرسطو الصورى:

قُدِرَ لمنهج القياس الأرسطو طاليسى أن يسود التفكير العربى منذ أن نقل العرب أبحاث أرسطو المنطقية إلى لغتهم فى مطلع العصر العباسى فى المشرق العربى، لأنه يساعد أهل الجدل فى تدعيم حقائق الوحى الإلهي ودفع الحملات التى يشنها على الإسلام أعداؤه.

ولكن أرسطو لم يكن وراءه عند العرب سلطة تحميه أو تحيطه بالقداسة كما كان حاله فى أوربا بعد أن وفق بين فلسفته والعقيدة المسيحية ألبير الكبير والقديس توما الأكوينى فاتخذت الكنيسة الكاثوليكية فلسفته مذهباً لها. ولهذا تصدى بعض مفكرى العرب لمحاربة القياس فى حملة شنها المتطرفون من رجال الدين على التراث القديم الدخيل على العرب. حاربوا المنطق اليونانى بدعوى أن طرق البرهان الأرسطوطاليسية خطر على سلامة العقيدة الإسلامية.

وبرغم أن الحملة التى شنها المتزمتون من رجال الدين على المنطق ومناهجه القياسية الصورية لم يقدر لها أن تسيطر على الفكر العربى، إلا أن قيامها قد دفع بعض مفكرى العرب إلى البحث عن مناهج أخرى يمكن اصطناعها فى البحث العلمى. وكان اليونان يستنفذون وسعهم فى الاهتمام بالعلوم الصورية التى تستند إلى النظر العقلى المجرد – كالمنطق والرياضة – ويستخفون بالتفكير العلمى التجريبى ومناهجه فأدى هذا إلى تدهور العلوم الطبيعية عندهم، وتقدم العلوم النظرية الاستنباطية على نحو ما هو معروف واتجه العرب فى عصورهم الوسطى إلى التجربة والمنهج التجريبى الذى يستند إلى الملاحظة الحسية فى دراسة الظواهر الجزئية ابتغاء الكشف عن قوانينها.

ولبيان مكانة الملاحظة الحسية في تراث العرب يقتضينا الأمر أن نبين حرص العرب على الدعوة لها أو التبشير بها مصدراً وحيداً للحقائق، وممارستهم لها بالفعل فى ممارساتهم وبحوثهم واستعانتهم بها فى تمحيص أقوال أسلافهم والكشف عن أخطائهم، ثم اهتمامهم باستخدام الآلات التى تعوضهم عن قصور الحواس.

وشاعت الدعوة إلى الملاحظة فى كتب العرب إلى كسب الحقائق.

وقد عرض الحسن بن الهيثم (ت ٤٢٠هـ/١٠٢٩م) فى مقدمه كتابه "المناظر" لمراحل المنهج التجريبى فقال فى تأييد الملاحظة مصدراً للحقائق :

"ونبتدئ فى البحث باستقراء الموجودات ما يخص البصر فى حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير، وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس، ثم نترقى فى البحث والمقاييس على التدريج والتدريب مع انتفاء المقدمات، والتحفظ من الغلط فى النتائج... ونصل بالتدريج واللطف إلى الغاية التى عندها يقع اليقين. ونظهر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التى يزول معها الخلاف، وتنحسم به مواد الشبهات.." وهكذا يبدأ ابن الهيثم بملاحظة الظواهر الجزئية الحسية، وتحدد صفاتها وخصائصها، ثم يندرج فى بحثه مع التمحيص والحذر من الوقوع فى الخطأ حتى يبلغ اليقين.

وكان ابن البيطار (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٩م) رئيس العشابين (أى نقيب الصيادلة) فى مصر يعرض فى مستهل كتابه "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" لبيان منهجه فى البحث فيقول: " إنى توخيت صحة النقل فيما أنقله عن الأقدمين وأحرره عن المتأخرين. فما صح عندى بالمشاهدة والنظر، وثبت لدى بالخُبر لا بالخَبَر، ادخرته كنزاً سرياً، وعددت نفسى عن الاستغناء بغيرى – سوى الله – غنياً، وما كان مخالفاً .. فى المشاهدة الحسية فى المنفعة والماهية للصواب والتحقيق، أو أن ناقله أو قائله عدل فيه عن سوء الطريق، نبذته ظهرياً وهجرته ملياً، وقلت لناقله أو قائله " لقد جئت شيئاً فرياً .. ولم أحاب فى ذلك قديماً لسبقه ولا محدثاً اعتمد غيرى على صدقه" .

وكان أطباء العرب وهم يزاولون الطب فى مستشفياتهم يبدعون بتزويد أنفسهم بالإطلاع على خبرات أسلافهم من الأطباء من مختلف الأجناس. ولكنهم لا يقنعون بقراءاتهم ولا يعتمدون عليها، بل يستندون إلى خبراتهم وملاحظاتهم السريرية (الإكلينيكية). فإن إمام الطب العربى "أبا بكر محمد بن زكريا الرازى" (ت٣٢١هـ/٩٣٢م) جالينوس العرب فيما كان يسمى – قد أنشأ موسوعته الطبية "الحاوى" مستنداً إلى ملاحظاته الدقيقة لمرضاه وهم على أسرة المستشفى، وهو يتتبع سير أمراضهم ويرصد نتائج علاجه لهم/ ويسجل ذلك فى "الحاوى" . بل كانت رسالته عن الجدرى والحصبة أول ما كتب فى هذا الباب. وكانت

بدورها مبنية على ملاحظات سريرية (إكلينيكية). وقد ترجمت إلى [illegible]
كالانجليزية والفرنسية والألمانية واللاتينية واليونانية. وكان ما ابتدعه من تدوين مشاهداته وتعليقه عليها عملاً لم يسبق إليه من قبل. ومع انه كان يرى أن الطب النظرى قوام الطب التطبيقى، إذ يقول: "من قرأ كتب أبقراط ولم يخدم – يزاول الطب التطبيقى– خير ممن خدم ولم يقرأ كتب أبقراط "إلا أنه حين كان يوازن بين القراءة فى الطب والخبرة بمزاولته فيقول: "فينبغى للمعنى بأمر الطب أن يجمع بين رجلين أحدهما فاضل فى الفن العلمى من الطب، والآخر كثير الدربة والتجربة، ويصدر عن اجتماعهما فى أكثر الأمور، فإن اختلفا فليعرض ما اختلفا فيه على كثير من أصحاب التجارب. فإن أجمعوا جميعاً على مخالفة صاحب النظر قبل منهم، فإن الشكوك المغلطة تقع على الأكثر فى الفن العلمى النظرى أكثر منه فى التجربة.

"ما لم يتهيأ له إلا أحد الرجلين فليختر المجرب، فإنه أكثر نفعاً فى صناعة الطب من العادى عن الخدمة والتجربة والبيئة".

من هذا نرى أن الرازى وإن كان يؤثر للطبيب أن يجمع بين العلم النظرى والخبرة العلمية، إلا أنه آثر الالتجاء إلى الخبرة فيما يشكل عليه أمره، أو يتعارض فيه النظر مع الخبرة. فكانت الخبرة الحسية محك الصواب والخطأ، ومعيار الحق والباطل، وهو ما تواضع عليه المحدثون من المشتغلين بالعلم.

وما قيل فى الطب والفلك يقال ما يشبهه فى الجغرافيا (علم تقديم البلدان). فقد كتبوا فيه قبل أن يتصلوا بتراث غيرهم، مدفوعين فى هذا بحاجتهم إلى معرفة البلاد والطرق الموصلة إليها، تيسيراً للتجارة وتمهيداً لفتوحاتهم الحربية وتمكيناً للحج إلى بيت الله. أو طلباً للعلم أو غير ذلك من أغراض.

وكانت الإمبراطورية الإسلامية تجتمع على وحدة دين ولغة وثقافة، فزع العرب إلى دراستها عن طريق الرحلات والأسفار منذ القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادى). شجعهم على هذا شيوع إكرام الضيف من ناحية وبساطة

العيش عند أهل هذه العصور من ناحية أخرى، مع اهتمام الإسلام بالسفر حتى رفع عن المسافر بعض التزاماته الدينية، وقد تميزت أكثر رحالاتهم بدقة الملاحظة وصدق الرواية والاعتماد على المشاهدة المقصودة.

وبدأت الجغرافيا العلمية في عهد المأمون الذى أنشأ بيت الحكمة الذى زوده بمكتبة ومرصد فلكى، وحث الفلكيين على القيام بأرصاد جديدة على النحو الذى أشرنا إليه. وطلب إليهم أن يرسموا خريطة كبرى رآها المسعودى (ت ٣٤٦هـ، ٩٥٧م) وقال عنها " ... صور فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك. وهى أحسن مما تقدمها من جغرافيا بطليموس ومارينوس وغيرهما ".

وبدت التحسينات التى أدخلت عليها فى تحديد موقع الجزيرة العربية ومناطق دجلة والفرات والخليج العربى وغيرهما.

وفى ضوء هذا أبدعوا فى رسم الخرائط، وكان من أوائلها ما تضمنه كتاب "محمد بن موسى الخوارزمى" (٢٣٦هـ، ٨٥٠م) عن صورة الأرض قال عنه "كارلو الفونسو نللينو" إن مثل هذا الكتاب لا تقوى على وضعه أمة أوربية فى فجر نهضتها العلمية.

وكان أعظم الجغرافيين العرب الشريف الأدريسى (ت ٤٥٧هـ، ١١٦٦م). وقد تطايرت شهرته إلى ملك النورمانديين (روجار الثانى) فاستدعاه إلى بلاطه وأمر بأن تفرغ له كرة من الفضة عظيمة الجرم ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل- رومى- ورسم عليها الأدريسى الأقاليم السبعة ببلادها وأطوالها وأقطارها وسبلها وريفها وخلجانها وبحارها ومجاريها ونوابع أنهارها غامرة وعامرة، وما بين كل بلد وغيرها من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات والمراسي المعروفة ولا يغادر فيها شيئاً "وطلب إليه الملك أن يضع كتاباً فى وصفها فكان كتابه "نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق" وقد أثارت الخريطة إعجاب المحدثين من الباحثين فتولاها بالثناء البارون دى سلان وكارا ديفو وغيرهم.

ووفق العرب فى ضوء منهج الملاحظة والمعاينة إلى كشوف علمية توصل إليها الغربيون بعد مئات السنين. فمن ذلك القول بكروية الأرض ودورانها حول الشمس. فقد عرض أصحابه فى أوربا إبان العصور الحديثة للاضطهاد والتعذيب المرير، بينما كان الجدل حولها فى العالم العربى إبان العصور الوسطى يقوم على مقارعة حجة بحجة. فكان يقول بكروية الأرض كثيرون. منهم "ابن خرداذيه" ت٣٠٠هـ ، ٩١٢م ، وهو يقول فى "المسالك والممالك" إن الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعة فى جوف الفلك.

ومثل هذه الشواهد كثيرة، وكلها دالة على الدقة التى أدى إليها منهجهم القائم على المشاهدة والمعاينة.

- التجربة العلمية فى بحوث العرب :

كان ابن الهيثم يزاول التجربة العلمية مكملة للملاحظة الحسية، ويسمى "بالاعتبار". وقد قام بدوره بالكثير من التجارب التى مكنته من التوصل إلى كشوفه العلمية. فمن ذلك أنه توصل إلى تحليل العلاقة بين الهواء الجوى وكثافته، وأبان عن أثرها فى أوزان الأجسام ودرس بقوانين رياضية فعل الضوء فى المرايا الكرية وأثناء مروره فى العدسات الزجاجية الحارقة.

ولاحظ شكل الشمس الذى يشبه صورة نصف القمر أثناء الخسوف مستخدماً جداراً يقوم أمام ثقب صغير فى مصراع نافذة. فكان هذا أول ما عرف عن الغرفة المظلمة التى تستخدم فى كل صنوف التصوير الشمسى.

وفى بلاد الأندلس كان "مسلمة بن أحمد المجريطى" (ت ٣٩٧هـ،١٠٠٧م) يوجب على المشتغل بالكيمياء أن يدرب يديه على إجراء التجارب وبصره على ملاحظة المواد الكيماوية وعقله على مزاولة التفكير فيها. وفى ظل هذا المنهج أجرى كثيراً من التجارب. منها على سبيل المثال تجربة توصل عن طريقها إلى قانون حفظ المادة. وذلك أن وضع ربع رطل من الزئبق النقى فى إناء زجاجى

بيضى الشكل موضوع فى إناء آخر شبيه بأوانى الطهى، وتركه على نار هادئة أربعين يوماً، لاحظ بعدها أن الزئبق قد استحال إلى رماد ناعم أحمر مع احتفاظه بوزنه. وقد مهدت التجربة لبحوث كيميائية قام بها "لافوازيين" و "بريستلى" فى هذا المجال.

أظننا لسنا فى حاجة إلى التأكيد على أن أجدادنا العرب قد اهتموا بالملاحظة والتجربة العلمية وأنهم قد اهتموا أيما اهتمام بالمنهج العلمى وبالنظر العلمى وما ذكرنا مجرد إشارات عابرة، وتاريخ العلم خير شاهد على الدور الكبير الذى لعبته الحضارة الإسلامية فى تاريخ الإنسانية.

- تعقيب :

عرضنا فى الصفحات السابقة لموضوعنا الحضارة الإسلامية ومقوماتها، ولاحظنا أن هذه الحضارة تنطلق من مقومات أصيلة وعلى رأس هذه المقومات مفهوم "الإلوهية فى الحضارة الإسلامية". لقد غدا هذا المفهوم بكل ما يحمل من معانى السمو والجلال والجمال الدافع والمؤسس إلى كل القيم الأخلاقية والجمالية الأخرى، فالفهم الحقيقى لمفهوم الإلوهية فى الإسلام، أعلى من قيمة الإنسان وحافظ على كيانه وكرامته وإنسانيته، بشرط أن لا يصل هذا إلى مكانة "التهميش" أو "التأليه" مثلما ذلك واضحاً فى فهم الحضارة الغربية لمفهوم الإله أو إتحاد اللاهوت بالناسوت أو بعبارة أخرى "أنسنة الإله" أو "تأليه الإنسان".

لقد غدا الإنسان الغربى مغروراً، إثر الثورة العلمية المعاصرة وظن أنه سيد الكون والطبيعة ولا سيد قبله!! ولعل هذا الخلل السلوكى فى شخصية الإنسان المعاصر يعود بشكل أو بآخر إلى الخلل فى فهم قضية الإلوهية.

كما أنه اتضح لنا من خلال الصفحات السابقة أن الحضارة الإسلامية حضارة أخلاقية، وليس هذا القول من قبيل التعاطف والإسقاط والتبرير وإنما تاريخ حضارتنا الناصع والزاهر خير شاهد على صحة ما ندعى؟ ولقد حاولنا أن

نستشهد بنماذج عديدة على مظاهر الأخلاق والجمال فى هذه الحضارة، كما أننا طرحنا إشكالية الحضارة فى تفاعلها مع الثقافات الأخرى، ورغم ذلك فلقد احتفظ الفكر المسلم بشخصيته وذاتيته وتصوره الإسلامى للكون والحياة والإنسان.

كما أننا عرضنا لموقف الحضارة الإسلامية من قضية التفكير العلمى، ونظرة حضارتنا إلى العلم والعلماء، وكيف أن القرآن الكريم بدعوته الرحبة نحو التفكير والبحث العلمى قد شحذ ذهن العالم المسلم نحو الالتزام بالمنهج العلمى من ملاحظة وتجربة ونزاهة وموضوعية فكان فى هذه الحضارة علماء كبار فى ميادين عديدة فى الطب والكيمياء والفلك والجغرافيا وفى الفلسفة وفى التصوف وغيرهم وغيرهم من مجالات العلم؟ وبعد هذا هل لا يحق لنا القول أن الحضارة الإسلامية هى حضارة العلم والأخلاق، وأن غيابها عن قيادة البشرية يؤذن بالتخلف والبوار للمجتمعات المعاصرة؟!!!.

الفصل الثامن

"إشكالية الحوار الحضاري وعقباته في واقعنا المعاصر"

- إشكالية الحوار الحضارى
- أسس الحوار الحضارى
- بعض العقبات فى طريق الحوار الحضارى

إشكالية الحوار الحضارى وعقباته فى واقعنا المعاصر

- إشكالية الحوار الحضارى :

ظهرت أطروحات الحوار الحضارى بين المسلمين والغرب، بشكل جلـــى فى الآونة الأخيرة، خاصة إثر كتابات " فوكويامـــا عـــن نهايـــة التـــاريخ "، وأن النموذج الغربى الليبرالى هو النموذج والمثال، والذى يجب محاكاته، أو أن يسود العالم بأسره شرقه وغربه، شماله وجنوبه، وأيضاً كتابات صمويل هنتجنتون عـــن الصراع الحضارى، ويبدو أن هذه الكتابات تعاظمت بصورة جلية بنهاية الحـــرب الباردة بين الغرب الرأسمالى والشرق الشيوعى.

ولقد تبنت الأمم المتحدة فكرة الحوار الحضارى، واعتبرت عام ٢٠٠١ هو عام الحوار بين الحضارات، وانطلاقاً من هذه الأهمية على المـــستوى العـــالمى، وأن هذه القضية ما زالت فى أمس الحاجة إلى معالجات انطلاقاً من فقه الواقـــع، نحاول أن نطرح لأساسيات الحوار بيننا وبين الغرب وعقباته من خـــلال الرؤيـــة الإسلامية كما يلى :

لابد وأن نقرر بداية، أن الحوار بين الأنا والآخر، مـــن مبـــادئ الإســـلام العظيمة والتى أعلى من قدرها، وأن التعارف والتعاون بين الشعوب سمة أساسية من سمات الإسلام الحنيف، وليس أدل على هذا من بلاغة القرآن الكـــريم، فلـــو نظرنا فى سورة الحجرات لوجدنا أن المولى تبارك وتعالى يقـــول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ الحجرات: ١٣، فأصل دعوة الإسلام هو الالتقاء بين الأمم والشعوب لمزيـــد من التفاعل والتواصل الحضارى.

- اسس الحوار الحضارى :

١- الحوار الحضارى لا يعنى الذوبان فى الآخر :

الحوار الحضارى يعنى فى نظر الحضارة الإسلامية احترام ثقافة وخصوصية الآخر، وأن تعدد الحضارات يعتبر تعدد تنوع وتعاون لا تعدد صراع وتنابذ، ومن ثم فالحضارة الإسلامية عندما دان لها العالم بالقوة والسيادة، لم تسع إلى ابتلاع الآخر وفرض هيمنتها على الآخرين - بالعكس - لو نظرنا إلى هذه الحضارة لوجدنا أن أهم سماتها هو التواصل والتفاعل مع الحضارات المجاورة، فلقد استفادت الحضارة الإسلامية من تراث الإغريق والرومان، فقد تم ترجمة مؤلفات أرسطو وطب أبقراط وهندسة إقليدس، ثم أبدع العالم المسلم من قريحته الفكرية وأضاف إلى هذه الأفكار أفكاراً أخرى، وظهر طب ابن سينا يتمثل ذلك فى كتابه " القانون فى الطب "، لم تسع الحضارة الإسلامية إلى ابتلاع الحضارات المجاورة أو الهيمنة على ثقافة الآخرين مثلما يعتقد فوكوياما، ودايفيد رونكويف وغيرهما من الكتاب والمفكرين الغربيين.

إن كل حضارة لها خصوصيتها الثقافية، فالحضارة الإسلامية نتاج عقيدة التوحيد، وما يترتب على هذه العقيدة من منظومة القيم الروحية المترتبة عليها، أقول ليس معنى الحوار أن تطالبنى بالتخلى عن ثوابتى العقدية وقيمى الأخلاقية التى هى أخص خصائص حضارتى، وحتى يكون الحوار حواراً مثمراً، فلابد أن نحترم ثوابت الآخر وثقافته التى يؤمن بها، ومن هنا تكون أرضية الحوار أرضية بناءة لمزيد من التلاقى والتلاقح الفكرى بين الشعوب والحضارات.

٢- القواسم المشتركة بيننا وبين الغرب لدعم الحوار الحضارى :

يبدو لى أن القواسم المشتركة بيننا وبين الغرب كثيرة، لتفعيل الحوار الحضارى وأول هذه القواسم، ترسيخ مبدأ التعايش فى سلام، فالإسلام دين السلام بأوسع معانيه، لأن كلمة الإسلام تعنى السلام، أو إسلام الوجه لله، وتحية الإسلام

السلام، والإسلام يدعو إلى السلام النفسى للفرد والمجتمع، ومن هنا فإن التأكيد على هذه الحقيقة كمبدأ أصيل، والتى دعانا إليها الغرب فى عصرنا الحديث من خلال منظمة الأمم المتحدة كأحد مبادئها، أقول إن البشرية الآن ترنو إلى تحقيق الهدف الذى أصبح بعيد المنال " السلام " وحتى لا يكون الكلام فى حوار الحضارات مجرد أمانى، فلابد أن يكون المدخل الصحيح للحوار، إن ديننا يؤكد على حقيقة " السلام " بمعناه الكامل، ولو نظرنا إلى تاريخ السيرة العطرة فى دولة المدينة، لوجدنا أن النبى ﷺ قد كتب ميثاق المدينة وهو عهد بين النبى ﷺ والمسلمين واليهود، فلقد حفظ النبى ﷺ لليهود حقوقهم كاملة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا)، لم ينظر النبى ﷺ على أنهم أقليات ليس لهم حقوق مكفولة، بل نظر إليهم على أنهم مواطنون من الدرجة الأولى بلغة الفكر السياسى المعاصر، من هذا المنطلق فالسؤال المطروح للحوار هل الغرب يطبق هذه القيمة فى العالم المعاصر؟

من القواسم المشتركة بيننا وبين الغرب أيضاً، التقارب بين الأمم والشعوب فى كل المجالات اقتصاديا وسياسياً واجتماعياً، فالدعوة إلى تعزيز العلاقات بين الأمم والشعوب يعزز الحوار الحضارى، ويزيل كابوس " الخوف من الآخر " وهذه النقطة " الخوف من الآخر "، سأشير إليها فى النقطة التالية بصورة واضحة.

ظهرت كتابات فى الغرب، تعزز مفهوم النظر إلى الإسلام كعدو أو الخوف من ظهور الحضارة الإسلامية كبديل عن الحضارة الغربية مثل كتابات نيكسون، " الفرصة السانحة " والحق يقال إن الإسلام الحضارى فى صالح البشرية لأنه لا يود أن يفرض نفسه بالقوة والهيمنة، بلغة موازين القوى المعاصرة، وإنما تنظر الحضارة الإسلامية إلى مصلحة البشرية جمعاء، وتحترم الإنسان وتقدره لكونه إنساناً بصرف النظر عما يعتقد قَالَ تَعَالَى:﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا

بنِيٓ ءادم وحملنٰهم فِي البرِّ والبحرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴿٧٠﴾ ﴾ الإسراء: ٧٠.

٣- المسلمون والدور الحضارى لدعم الحوار :

دائماً أقول إن الخلل من داخلنا فما زال الإسلام الحضارى مغيب عن الوجود، وما زال المسلم يحكمه لغة الانفعال لا لغة المنهج، ومن هنا فإن توضيح صورة الإسلام بتوازنه بين مطالب البدن وعالم الروح، نحن فى أمس الحاجة لتوضيح هذه الصورة للإنسان الغربى، فكما يقال – الناس أعداء ما جهلوا – ومن هنا فإن الصورة المزرية هى التى ما زالت تعشش فى ذهن وذاكرة العديد من الغربيين وتؤثر بشكل أو بآخر عليهم، وحتى يكون الحوار حواراً مثمراً فلابد وأن نميط اللثام عن حقيقة الإسلام بمعناه الحضارى، الإسلام الفاعل فى دنيا الناس حضارة وثقافة وعلماً، وهذا الدور من أخطر الأدوار حتى نستطيع أن نقيم قاعدة ثابتة بيننا وبين الغرب بأن الإسلام الحضارى يوم يسود فسيكون لنفعهم هم أنفسهم، لا أن يكون مرعباً لهم، والبون شاسع بين المفهومين، فالخوف عقدة الغرب من النموذج البديل، ويتمثل هذا فى الإنسان الأخضر أو " المسلم الحضارى ".

٤ – الموضوعية أساس الحوار :

لابد أن تكون قيمة " الموضوعية " هى أساس كل حوار بيننا وبين الغرب، فليس من الإنصاف أن نتحاور مع غيرنا وتحكمنا أفكار محددة، وإن النظرة الأحادية لمن أخطر الأمور فى دنيا الحوار، وقالها الإمام الشافعي قديماً: " رأيى صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب " إن هذه القاعدة المنهجية لمن أخطر الأمور فى الحوار الحضارى، والغرب الآن فى حاجة إلى تأسيس حوار بناء، حوار يبنى لا يهدم، حوار يقيم مملكة العدل فى الأرض لسعادة الإنسان. وفى هذا الصدد يقول الكندى أول فلاسفة العرب والإسلام: " ينبغى ألا

نستحى من الحق واقتناء الحق من أين وإن أتى من الأجناس القاصية عنا " وهـذا المبدأ يؤكد على أن البحث عن الحقيقة لا يشترط جنساً أو مكاناً ولم يكن ابن رشد بمعزل عن هذه المبادئ العظيمة فهو القائل فى كتابه " فصل المقـال فيمـا بـين الحكمة والشريعة من الاتصال" : " يجب أن ننظر للأمم السابقة فيما قالوه وأثبتوه فى كتبهم فما كان موافقاً للحق قبلناه وسررنا به وشكرناهم عليه وما كـان غيـر موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناه ".

الحوار والمجادلة بالحسنى منهج قرآنى فريد: يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾ العنكبـوت: ٤٦.

تدل الآية على التعاون فيما اتفقنا عليه، من الإيمان بالإلوهيـة، وأن يعمـد المتحاور إلى أحسن الأساليب فى الدعوة والحوار، وأن يختار من بينها، فليـست الآية مخيرة المحاور بين الحسن والقبيح وإنما آمرة إياه أن يختار الأحسن بدلاً من الحسن وهذا يدل على مدى احتفاء القرآن بمراعاة نفسية محاوريه، وهناك آيـات قرآنية كثيرة، ونكتفى بهذا النموذج.

٥- حوار لا صراع :

كما أشرت أطلق صمويل هنتجنتون، صراع الحضارات، ولست أدرى ما الذى دفع هذا الصراع، فعندما كانت الحضارة الإسلامية فى أوج مجدها، بحثـت عن " التواصل " مع الشعوب المجاورة، ومن يستنطق التاريخ يجد الكثير والكثير، فأبن رشد الإسلامى أثر فى المدرسة اللاتينية فـى فلـسفة العـصور الوسـطى المسيحية واليهودية، دون أن يكون هدف هذه الحضارات تحت مـسمى العولمـة تارة، والكوكبة تارة أخرى، وغيرها من مسميات أخرى كثيرة ونستطيع أن ننتهى إلى أن المبدأ " التدافع الحضارى" هو البديل فى نظر الإسلام عن الصراع استناداً

إلى قولـــه: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ البقرة: ٢٥١.

٦- التوازن بين الحضارات سنة كونية :

من سنن الله فى خلقه القانون، فكل شئ عنده بمقدار، وهذا القانون الإلهى كما يحكم الحياة، يحكم أيضاً – فيما نعتقد – سير الدول والشعوب والحضارات، ولو حادت عنه لبادت هذه الحضارات، كما حدث للحضارات السابقة، ومن هنا فإن التأكيد على المبادئ الرئيسية التى تؤدى إلى التوازن بين الحضارات والشعوب لابد أن يكون سمة الحوار الحضارى مثل مبدأ حق الشعوب فى تقرير المصير، وحل النزاعات الدولية بالطرق السلمية، وعدم استخدام القوة لحل الصراع بين الأمم والشعوب وهذه المبادئ التى دعت إليها عصبة الأمم فى وقتنا الحديث- كما أشرت آنفاً – هى مبادئ إسلامية، كما أنها تحقق التوازن بين الشعوب والحضارات ولو حادت حضارة من الحضارات عن هذه المبادئ لتعرضت للأفول والاحتضار.

- بعض العقبات فى طريق الحوار الحضارى :

وفى الختام يجدر بنا أن نشير إلى بعض العقبات التى يجب تجاوزها لدعم الحوار:

١. ضرورة دراسة النفسية الغربية دراسة جيدة ومحاولة تصحيح المفاهيم المشبوهة عن العرب والمسلمين حيث إن تراكمات العصور الغابرة، تؤثر بشكل أو بآخر فى نفسية الإنسان الغربى وتصوراته.

٢. تصحيح الصورة المشوهة عن العرب فى الغرب، وذلك عن طريق السعى الجاد نحو تصحيح المناهج الدراسية فى الغرب وتصويبها بما يتفق مع المفاهيم الإسلامية الصحيحة (عبر السفارات والقنوات الثقافية المختلفة).

٣. الاستفادة بالتقنية المعاصرة وخاصة الإنترنت فى التعريف بالحضارة العربية والإسلامية وبث المفاهيم المعتدلة عن العرب والمسلمين، واعتقد أن هذا الأمر بمثابة فرض عين على الأمة العربية والإسلامية.

٤. تشجيع إنشاء المراكز البحثية المتخصصة فى عالمنا العربى التى تهتم بقضية الحوار، والاتصال بالمراكز المناظرة والمماثلة فى العالم أجمع للاستفادة والإفادة.

٥. من العقبات التى يمكن تجاوزها، تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها فى بلاد الغرب، إذ لوحظ أن الأمر يتعلق بعدد محدد جداً من الأفراد والعلماء والمستشرقين والدبلوماسيين ورجال الأعمال والاستخبارات وأن دعم اللغة العربية للقاعدة الشعبية فى الغرب مطلب ضرورى لتفعيل الحوار.

٦. مراجعة أعمال الاستشراق وإنشاء هيئة عالمية لدراسة أعمال الاستشراق وتقييمها تقييماً علمياً والرد على الآراء والأفكار التى تصطدم مع صحيح التصور الإسلامى.

٧. دعم المراكز والأقسام المتعلقة بالاهتمام بدراسة اللغة العربية فى الجامعات وتفعيلها، والتعاون معها ومع المراكز المناظرة فى العالم العربى والإسلامى لإقامة مزيد من جسور التواصل.

اعتقد أن ما قدمنا آنفاً يصلح أن يكون بمثابة أسس متواضعة لمزيد من الحوار المثمر بيننا وبين الغرب.

الفصل التاسع

"قراءة نقدية فى خطاب الأمير تشارلز ودلالته فى واقعنا المعاصر"

- مقدمة
- تعزيز قيم المحبة والاحترام
- عدم فهم الإسلام الفهم الصحيح
- فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الإنسانية
- السلوك الإسلامى من الأقليات فى الغرب يرفض التعصب
- حقوق الأقليات فى المجتمع الغربى
- الإعلاء لعالم الروح
- الاختلاف اختلاف تنوع لا خصومة
- ما الذى نستفيده من لغة خطاب ولى العهد البريطانى

قراءة نقدية فى خطاب الأمير تشارلز ودلالته فى واقعنا المعاصر

أولاً: مقدمة:

ينبغى ألا تمر علينا الأحداث مرور الكرام، نستمع إليها ولا سيما أن ننسى، وتلك مصيبتنا نحن العرب والمسلمين، نشدو للكلمات الطيبة ولا سيما أن تتبدد فى الهواء أشبه بفقاقيع المياه!، فالأمر أكبر من ذلك بكثير، فالمرحلة التى نمر بها فى غاية الصعوبة والتعقيد، والأمر يحتاج إلى أن نضع النقاط فـوق الحـروف وأن نعظم الخطاب العقلانى القادم من الغرب وأن نعززه، أقول هذا الكلام لما نلاحـظ من موجة عاتية من الأفكار المسمومة القادمة من الغرب سواء بنية مبيتة أو بنيـة غير مبيتة، فالكل سواء فيما يخص إهالة التراب على موروثنا الحضارى وقيمنـا الثابتة، كان هذا الكلام بمثابة مقدمة ضرورية وهامة، قبل إلقاء الضوء على أفكار الأمير تشارلز فى كلمته التى ألقاها بمصر فى شهر مـارس وانفـردت بنـشرها جريدة الوطن فى العدد ٨٢٨١ بتاريخ السبت ٢٥ من صفر ١٤٢٧هـ الموافـق ٢٥ من مارس ٢٠٠٦م.

ثانياً: تعزيز قيم المحبة والاحترام :

فى البداية يؤكد الأمير تشارلز فى كلمته فى جامعة الأزهر الشريف تحـت عنوان " التوحد فى الإيمان " دعا فيها العالم إلى نبذ الصراعات، مؤكداً أن الأديان السماوية تدعو جميعاً إلى الوحدة لكى تنعم البشرية بالأمن. ويؤكد فى موضع آخر أن أسمى القيم فى تراثنا المشترك النابعة عن محبة الله وهى الاحترام الذى يكنـه بعضنا لبعض ولكل ما خلقه الله سبحانه وتعالى. وفى هذا الصدد نود أن نؤكد من جانبنا أننا فى هذه المرحلة ينبغى أن نعظم المشترك الحضارى بيننا وبين الغـرب مثل قيم المحبة والتعاون والاحترام ولا داعى لأن نبحث عن الأمـور الخلافيـة،

فمثل هذا النهج الذى تبناه الأمير تشارلز يجمع ولا يفرق، يؤلف بين الثقافات والحضارات.

ويؤكد الأمير تشارلز على هذه الحقيقة الناصعة الواضحة وضوح الشمس من المنطق القرآنى يقول : فقد أراد لنا الله أن نتعارف ونتآلف متحدين رغم تنوع أدياننا واختلاف مذاهبنا وكم هى مؤثرة فى النفس حقاً تلك الآية القرآنية الكريمة حيث يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ الحجرات: ١٣.

ثالثاً: عدم فهم الإسلام الفهم الصحيح :

ويأس الرجل لعدم فهم الإسلام الفهم الصحيح، وعن ذلك يقول : " عن رأيي بالنسبة للعلاقات بين الإسلام والغرب فى كلمة ألقيتها فى عام ١٩٩٣ فى جامعة عظيمة أخرى هى جامعة أكسفورد وذكرت فى حديثى آنذاك أمراً سبب لى منذ تلك اللحظة كثيراً من القلق والتحسب، فقد قلت فى كلمتى: "رغم ما تحقق من تقدم فى التكنولوجيا وفى انتشار الاتصال الجماهيرى فى النصف الثانى من القرن العشرين ورغم قيام جماهير غفيرة من الناس بالسفر والترحال واختلاط الأجناس والأعراق فإن سوء التفاهم بين الإسلام والغرب ما زال قائماً والواقع أنه فى تزايد." هذا الكلام قاله الأمير تشارلز أو ربما يريد أن يبعث إلينا برسالة مفادها أن الناس أعداء ما جهلوا، هذا الكلام قبل أحداث سبتمبر ٢٠٠١م المشئوم ويقول سوء التفاهم فى ازدياد فما بالنا بالموقف الآن وما واجبنا نحن المسلمين تجاه سوء الفهم فى الغرب وما الخطة الإستراتيجية التى رسمناها فى هذا الصدد؟ أم نحن مثل فقاقيع المياه كما قلت آنفاً؟!.

رابعاً: فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الإنسانية :

ويشيد الرجل بغنى وثراء الحضارة العربية الإسلامية وفضلها على الغرب والحضارة الإنسانية فيقول: " وعلينا نحن الذين نعيش فى الغرب أن نتذكر أننا

ندين بالكثير لعلماء المسلمين فقد كان الفضل لهم فى أنهم حافظوا فـــى العـــصور المظلمة فى أوربا على كنوز العلوم والمعارف الرومانية واليونانية القديمة " وفى موضع آخر " وقد أظهر لنا التاريخ الطفرات الهائلة لموهبة الابتكار والإبداع فى مجال المعارف كالعلوم والآداب والفنون التى يمكن للبشرية تحقيقها عندما تتضافر قوى أعضاء الأسرة التى رفع لواءها إبراهيم عليه السلام وتتعاون فيما بينها فهل لنا أن نستدر الإلهام والتفاهم والتفجير الهائل فى العلوم والمعـــارف إبـــان عهـــد العباسيين بين القرنين التاسع والثالث عشر عندما كانت عاصمتهم بغـــداد مركـــزاً عالمياً للمعرفة والعلوم أو نستدر الإلهام من الأندلس فى عصرها الإسلامى بـــين القرنين العاشر والرابع عشر حين شهدت مدنها من أمثال قرطبة وطليطلة كيـــف تآزر العلماء المسيحيون والمسلمون واليهود فقادت نشاطاتهم إلى ازدهار عـــصر النهضة فى أوربا وعلينا نحن الذين نعيش فى الغرب أن نتذكر أننا نـــدين بكثيـــر لعلماء المسلمين فقد كان لهم الفضل فى أنهم حافظوا فى العصور المظلمـــة فـــى أوربا على كنوز العلوم والمعارف الرومانية واليونانية القديمة " شهادة منصفة من رجل معاصر يعيش فى خضم الغرب، يتابع موجـــة الظلـــم العاتيـــة لحـــضارتنا وثقافتنا، يتابع صيحات صدام الحضارات، النموذج الأخير إلى آخـــر المقـــولات والمزاعم التى لا أصل لها من واقع ولا تاريخ، شهادة جاءت فى وقتها، فى وقت ضعف البعض أمام الطفرة الحضارية القادمة من الغرب، لكى تُضم إلى شهادات آخرين منصفين مثله مثل جوستاف لوبون فى حضارة العرب، وآنا مارشيل فـــى شمس العرب تسطع على الغرب بخلاف ما نجده فى تاريخ العلم لجورج سارتون الذى يمر على تاريخ العلم فى الحضارة العربية الإسلامية مروراً عابراً أو علـــى استحياء، ألم أقل لك أيها القارئ العزيز أنها شهادة منصفة لحمتها و ســـداها مـــن رجل غربى ومن هنا تكون قيمة الشهادة وعدل الإنصاف فـــى زمـــن قـــل فيـــه المنصفون!.

خامساً: السلوك الإسلامى من الأقليات فى الغرب يرفض التعصب :

وفى مجال نبذ التعصب والإرهاب يؤكد الأمير تشارلز على هذه الحقائق وأنه : يعتز بقيم ومثل الثقافة الإسلامية فى المملكة المتحدة ويقول أنه سعى إلى تعزيز هذه المفاهيم بطريقة منهجية وآلية واضحة تمثلت فى : صندوق الأمير ومؤسسة البيئة المعمرة ومدرسة الفنون التقليدية وآمل أن تصبح هذه البرامج مع نموها وتطورها عبر بلاد أخرى نماذج تحتذى من قبل مجتمعات أخرى، فحتى من خلال أصغر المشاريع والنماذج يمكن إعادة وضع أسس الاحترام المتبادل ومراعاة شعور الغير والتحلى بالآداب والأخلاق.. الخ" ويرى الأمير تشارلز بأن الخلاص لإنسان العصر تتمثل فى صوت الإيمان القادم لنا من الأديان السماوية يقول: (علينا أن نعود إلى إحياء ما تمتع به العالم الإسلامى فى عصوره الذهبية من عمق وحس مرهف ورحابة صدر فى التفكر والروية واحترام وإجلال للحكمة، فلقد كرم الإسلام اليهود والمسيحيين بأن أطلق عليهم اسم أهل كتاب لأنهم كالمسلمين يجتمعون على دين الكتب السماوية) ومن أجل هذا ينقد الرجل حياة المادية المعاصرة ويؤكد على ضرورة العودة إلى صوت الإيمان يقول : " فى هذا العالم التجريدى المادى الذى يضيع فيه المعنى الروحانى ألا ينبغى أن يتحد الذين يتشاطرون الإيمان، ويتخطون الذات ويسمون على الأنانية والشهوات ويترفعون عن عبادة العلم للعلم ذاته، أولئك الذين يؤمنون بوجود كون شامل متكامل يوازن بين العقل والجسد والروح أى بين الفكر والضمير عبر إدراك شامل لذلك النظام الذى أراده الرحمن للعالم هبة مستورة من لدنه ومحبة من عنده ليكرم به خليقته " إنه نقد للحضارة الغربية من بنيتها من الداخل ومن رجل يعيش فى كنفها وما ينبئك مثل خبير ومن هنا يكون أهمية التحليل. وحول ضرورة احترام الآخر يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك فى وضوح وجلاء فيقول: " إن التشديد على احترام بعضنا بعضاً هو فى صميم تعاليم أدياننا كلها وهذه المسألة أهم شأناً من أن تكون مسألة جدل سياسى حول حقوق الأقليات فالمسلمون والمسيحيون واليهود متفقون فى

الإيمان بكرامة الإنسان وقيمته فكل إنسان منا فريد فى ذاته وذو قدر فريـد عنـد الله.

سابعاً: حقوق الأقليات فى المجتمع الغربى :

وحول حقوق الأقليات فى المجتمع الغربى نجد نظرة ثاقبة وشهادة منصفة، حرى بنا نحن العرب والمسلمين أن نعتز بها، أن نروجها لكل العالم شرقاً وغرباً لما لها لفظة من دلالة ومغزى ومعنى يقـول: " فالـسمة المميـزة لأى مجتمـع متحضر فى رأيي هى ما تجزيه من احترام للأقليات والغرباء وإكـرام الـضيف وحسن استقبال الغرباء وعابرى السبيل من مسافرين عنصر يعتز بها حقـاً فـى الحضارة الغربية ونحن فى بريطانيا بذلنا جهداً كبيراً للترحيب بأتبـاع الـديانات الأخرى وفى تمكينهم من المحافظة على هوياتهم الفريدة وتكيفهم فى الوقت ذاتـه مع الحضارة البريطانية. وهناك الآن أكثر من مليون ونـصف المليـون مـسلم بريطانى يثرون المجتمع البريطانى ويغنونه بطرق عديدة كما أننى على يقين بأن الأقليات المسيحية هى أيضاً تثرى مجتمعاتها الإسلامية ".

وكلام الرجل فى هذا الصدد غاية فى العمق والأصالة معاً، فاعترافه بدور الأقليات الإسلامية فى الغرب شهادة جديدة ينبغى أن نتوقف عندها وكذلك إنصافه لغير المسلمين فى المجتمع الإسلامى، فنحن نضيف من جانبنا بأنهم جزء لا يتجزأ من نسيج المجتمع وبالفعل هذه حقيقة الواقع والتاريخ وعلى سبيل المثال مـصرنا العزيزة بما تمثل من تراث حضارى للتلاحم والذوبان بين المسلمين والمسيحيين.

ثامناً: الإعلاء لعالم الروح :

ويجدر بنا ونحن نحلل بنية الخطاب المتزن عند الأمير تشارلز أن نـشير إلى البعد الميتافيزيقى الأخروى الذى يؤكد عليه وهذا يدل على أن العقـلاء مـن الغربيين يرفضون النزعة المادية الطاغية وأن من هؤلاء من يقدم نقداً لاذعاً مـن

داخل بنية الحضارة الغربية لا من خارجها وهنا مكمن الأهمية والتأثير معاً علـــى ما نعتقد.

يقول: " نحن كأهل إيمان نعلم أيضاً أن روح الإنسان تعود إلى بارئها إلـــى أفق الحياة الخالدة وندرك بالحدس والبديهة أننا كثيراً ما نركز اهتمامنا على العالم الظاهرى الذى غالباً ما يستبعد ما لا يمكن قياسه ووزنه ولذا يسقط من الحسبان ما لا يقاس أو يقال ويوزن ولكن كيف يتسنى لنا أن نقيس ونزن الإيمان أو الجمـــال أو الولاء أو الفرح أو حتى كيف يمكن لنا أن نقيس المحبة ونكيلها وكل الأمـــور التى تجعل الحياة جديرة بالعيش وتساعد على تحديد جوهر إنسانيتنا ألا تشكل هذه السجايا حقيقة روحية داخل نفوسنا؟ نحن محتاجون إلى لغة الروح، لا لغة المادة، لغة الخلود فى الدار الآخرة، لا لغة اللحظة الآنية المشبعة بالشهوة والترف.

تاسعاً: الاختلاف اختلاف تنوع وليس اختلاف خصومة :

ويشير الأمير تشارلز إلى أن الاختلاف اختلاف تنوع لا اختلاف خـصام وفرقة ويرفض مقولة بعض الغربيين المتعصبين من ضرورة إقامة ثقافة عالميـة واحدة تحل محل الثقافات المحلية فى العالم أجمع وهى نظرة منصفة تـدل علـــى علو كعب الرجل فى قراءة التاريخ، وواقعنا المعاصر يقول: "علينا أن نحافظ على سلامة كل دين من أدياننا الإسلامية والمسيحية واليهودية ونعترف بتنوعنا الغنـــى ونحترمه فهو فى نهاية المطاف ضماننا الوحيد ضد سيطرة ثقافة عالمية موحـــدة أحادية الثقافة سواء دينية كانت أو علمانية. ولكى ندافع عن عـــالم الـــروح ضـــد المادية الدنيوية وعن الكرامة الرفيعة لكل منا ضد التطرف وعبادة الـذات يجـب علينا أن نرعى ونشجع ونفعل كل ما يترجم الصفات الإلهية المتمثلة فى التـراحم والتعاطف وهذا بحد ذاته يدعو إلى الروية والهدوء وضبط النفس وهو إن جاز لى القول يتطلب من كل ذوى النفوذ فى أدياننا المختلفة إسداء الموعظة وإيضاح قيمة تلك الصفات والمزايا الإلهية للآخرين قال الملك سليمان بن داود قبل نحو ثلاثـة آلاف سنة (بلا روية يجمح الشعب) سفر الأمثال (٢٩:١٨)".

"وإنني لأتطلع بشوق إلى عالم نشترك فيه بروية نعترف بما بيننا من فوارق ونحترمها ونتفهمها. عالم نرى فيه أنه لا يمكن ولا ينبغي لنا أن نسئ إلى أدياننا العظيمة وتعاليمها باتخاذها سلاحاً نخدم به مصالح أية سلطة دنيوية تتسم بالأنانية وحب الذات". وكلام الرجل هنا لا يحتاج منى إلى تعليق فهو واضح أبلج فى الدعوة بالحسنى كما يقول ربنا: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ النحل: ١٢٥، كما أن كلامه دعوة عظيمة إلى حوار الثقافات والحضارات والأديان على أساس من الحوار البناء المثمر لخير ورفاهية الإنسان المعاصر.

هذه هى دعوة الأمير تشارلز من أجل العيش فى سلام على وجه المعمورة، فى كل مكان، ولعل السؤال المطروح من خلال العرض والتحليل ما الذى نستفيده من تحليل لغة الخطاب فى واقعنا المعاصر؟.

عاشراً: ما الذى نستفيده من لغة خطاب ولى العهد البريطانى:

يمكنني أن أجيب عن هذا التساؤل فى النقاط التالية:

١. يجب أن نستفيد من هذا الخطاب العقلاني الغربى الصادر من مسئول له أيديولوجيته وخاصة أنه يخدم قضايا العرب والمسلمين فى لحظة تاريخية نحن أحوج ما نكون إلى تعزيز مثل هذا الخطاب الموضوعى والمتزن.

٢. يذكرنا هذا الخطاب بما قاله ثباتيرو رئيس الوزراء الأسباني أمام مؤتمر القمة العربى المنصرم المنعقد بالجزائر عام ٢٠٠٥ – وللأسف – لم نستثمر خطاب ثباتيرو الاستثمار الأمثل.

٣. يجئ هذا الخطاب فى مرحلة حرجة خاصة إثر الحملة الضارية فى الإعلام الغربى على العرب والمسلمين واتهامهم بالإرهاب، فجاء الأمير تشارلز لكى يميط اللثام عن حقيقة الإسلام فى أنه دين ينبذ الإرهاب وشهادة من مثل هذا الرجل تتطلب سياسة الترويج والتوظيف لهذه الأفكار فى المجتمعات الغربية فالناس أعداء ما جهلوا.

٤. نأمل من مستشارينا الثقافيين فى سفاراتنا بالخارج فى المجتمع الغربـــى أن يترجموا هذا الخطاب من الأمير تشارلز وأن ينشروا أفكاره بـــين المثقفـــين الغربيين ويعقدوا الندوات الثقافية حول هذه الأفكار التى تدافع عـــن الأمانـــة والموضوعية للحقيقة من رجل غربى أدلى بشهادة فى أغلبها منصفة للحقيقة والتاريخ وكما يقول الفيلسوف الألمانى لاينيز "إن الذين يقيمون العـــدل فـــى الأرض يرفعهم الله إلى مكانة الشمس فى السماء".